الفصل الخامس

علاج القرآن والسنة للاستعجال

obeikandl.com

الفصل الخامس

علاج القرآن والسنة للاستعجال

مدخل:

الله-ﷻ-رحيم بعباده فهو أرحم بهم من الوالدة بولدها، رحمته وسعت كل شيئ، فهو عز قدره حين قال في كتابه العزيز مخبرا عن خلق الإنسان "خلق الإنسان من عجل"[1] "وكان الإنسان عجولا"[2] .....لم يكن تعالي ليخلق الإنسان بهذه الغريزة المذمومة-في أغلب الأحيان-ويتركه حائرا ضالا مضلا ؛ يتخبط في أموره ، يتعجل شره قبل خيره ، وضرره قبل نفعه ، بل لقد أنار له الطريق ، وهداه إلي السبيل ؛ فدعاه إلي التأني والحلم والصبر؛ ليقضي بهم علي العجلة والسرعة في الانتقام والجزع والهلع ، مبينا له المنهاج ، جاعلا كتابه وسنة رسوله المصطفي-عليه الصلاة والسلام-هداية له في كل طريق مظلم، وسبيل مسدود .

---

[1] سورة الأنبياء ، من الآية :٣٧ .

[2] سورة الإسراء ، من الآية: ١١.

obeikandl.com

المبحث الأول

دعوة القرآن الكريم والسنة إلي التأني

التأني لغة : مصدر تأني بمعني الترفق والانتظار ، وهو مأخوذ من مادة (أني) همزة ونون وحرف معتل ، قال ابن فارس : "الهمزة والنون وما بعدهما من المعتل ؛ له أصول أربعة : البطء وما أشبهه من الحلم وغيره ، وساعة من الزمان ، وإدراك الشيء ، وظرف من الظروف ، والتأني هنا مأخوذ من المعني الأول ، يقال للتمكث في الأمور: التأني ، ويقال من الأناة : رجل أني ذو أناة ، والأنا : من الأناة والتؤدة ، ويقال للرجل إنه لذو أناة أي لا يعجل في الأمور ، وهو آن ووقور ، واستأنيت فلانا أي لم أعجلة [1]. وفي المصباح :" (تأني) في الأمر تمكث ولم يعجل ، والاسم من أناة علي وزن حصاة"[2].قال الراغب : " يقال آنيت الشيء إيناء " أي أخرته عن أوانه ، وتأنيت : تأخرت ، والأناة : التؤدة وتأني فلان تأنيا ، وآني يأني فهو آن أي وقور، واستأنيته : انتظرت أوانه"[3]. ويستخلص من هذه الأقوال اللغوية أن مادة التأني تدور حول معني الترفق ، التمهل ، التريث ، التبين ، التثبت .

التأني اصطلاحا : لم يعرفه العلماء تعريفا اصطلاحيا ، ولكن يمكن استنباطه من المعني اللغوي فنقول : هو:عدم العجلة في طلب الأشياء ، والتريث والتمهل والترفق عند تحصيلها.

دعوة القرآن والسنة إليه :

حث القرآن الكريم والسنة المطهرة علي التأني في الأمور والترفق فيها ... ولقد ضرب لنا المولي-ﷻ-أعظم الأمثلة في الدعوة إلي التأني ، وهو خلق السموات والأرض في ستة أيام ، حيث خلقهما الله-ﷻ-في هذه المدة ؛ ليعلم عباده التمهل وعدم الاستعجال . قال تعالي :"إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام"[4] فخلق السموات والأرض في هذه المدة ؛ ليعلمنا حسن التثبت في الأمور والتأني عند العمل وترك الاستعجال ، فالمولي-جل شأنه-قادر علي خلق السموات والأرض في أقل من لمح البصر، ولكنه خلقهما في هذه المدة ؛ تعليما وإرشادا إلي التثبت في الأمور والتأني فيها.

ولقد وضح لنا الإمام القرطبي تلك الحكمة فقال :"وذكر هذه المدة ولو أراد خلقهما في لحظة لفعل ، إذ هو القادر علي أن يقول لهما كونا فتكونان ؛ ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور؛ ولتظهر قدرته للملائكة شيئا بعد شيء ....، وحكمة أخري خلقهما في ستة أيام ؛ لأن لكل شيء عنده

---

[1] معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٤١/١ ، ١٤٢ بتصرف كتاب الهمزة ، باب الهمزة والنون وما بعدهما في الثلاثي ،دار الجبل بيروت ، الطبعة الأولي ١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م .

[2] المصباح المنير ٢٨/١، كتاب الألف.

[3] المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ،ص٢٩ ،كتاب الألف مادة (وأن).

[4] سورة الأعراف ، من الآية: ٥٤ ورد هذا الجزء من الآية في أكثر من موضع في القرآن وهي :سورة يونس ،الآية: ٣ ، سورة هود ، الآية: ٧ ، سورة الفرقان ،الآية :٥٩ ، سورة ق ،الآية :٣٨ .

أجلا ، وبين بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب ؛ وهذا كقوله :" ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب {} فاصبر على ما يقولون[1]بعد أن قال "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا[2]"[3]. " فأخبرهم بأنه قد أهلك من المشركين به ، والمكذبين لأنبيائه من كان أقوى بطشا من مشركى العرب ، إلا أنه أمهل هؤلاء لما فيه من المصلحة ، كما خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام متصلة ، لا لأجل لغوب[4] لحقه فى الإمهال ، فهو-ﷻ-قادر على إيجاد جميع الأشياء دفعه واحدة ، لكنه جعل لكل شيئ حدا محدودا ، ووقتا مقدرا ، ثم لما بين تعالى أنه إنما خلق العالم لا دفعة ، ولكن قليلا قليلا قال بعده (فاصبر على ما يقولون) من الشرك والتكذيب ، ولا تستعجل لهم العذاب ، بل توكل على الله ، وفوض الأمر إليه ، وهذا معنى ما يقوله المفسرون من أنه تعالى إنما خلق العالم فى ستة أيام ؛ ليعلم عباده الرفق فى الأمور ؛ والصبر فيها ؛ ولأجل أن لا يحمل المكلف تأخير الثواب والعقاب على الإهمال والتعطيل ، ومن العلماء من ذكر فيه وجهين آخرين:

الوجه الأول: أن الشيئ إذا أحدث دفعة واحدة ثم انقطع طريق الإحداث ، فلعله يخطر ببال بعضهم أن ذاك إنما وقع على سبيل الاتفاق ، أما إذا حدثت الأشياء على التعاقد والتواصل مع كونها مطابقة للمصلحة والحكمة ، كان ذلك أقوى فى الدلالة على كونها واقعه بإحداث محدث ، قديم حكيم ، وقادر عليم حليم.

الوجه الثانى: أنه قد ثبت بالدليل أنه تعالى يخلق العاقل أولا ثم يخلق السموات والأرض بعده ، ثم إن ذلك العاقل إذا شاهد فى كل ساعة وحين حدوث شيئ أخر على التعاقد والتوالى ، كان ذلك أقوى لعلمه وبصيرته ؛ لأنه يتقرر على عقله ظهور هذا الدليل لحظة بعد لحظة ، فكان ذلك أقوى فى إفادة اليقين"[5].ويستخلص مما سبق الحكمة فى خلق السماوات والأرض فى هذه المدة دون خلقها دفعة واحدة:-

١- ليعلم عباده الترفق و التأنى فى الأمور كلها .

٢- لبيان قدرته تعالى وعظمته-ﷻ-.

---

(١) سورة ق ، الآية: ٣٨ ، وجزء من الآية: ٣٩ . وسبب نزول هذه الآية ماروى عن ابن عباس ، أن اليهود أتت النبى -ﷺ- فسألت عن خلق السموات والأرض ، فقال : (خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق السموات يوم الأربعاء والخميس ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر) .قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : (ثم استوى على العرش) ..قالوا : قد أصبت لو تممت ثم استراح ، فغضب رسول الله -ﷺ- غضبا شديدا فنزلت ، أسباب النزول للواحدى صـ ٢٨٢ .

(٢) سورة ق ، الآية:٣٦

(٣) الجامع لأحكام القران للقرطبى المجلد الرابع ٧ / ١٤٠ / ط . دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ ، ١٩٨٨ / وينظر فتح القدير للشوكانى ٢ / ٢١١.

(٤) لغوب : تعب شديد ، إعياء (المنجد فى اللغة العربية المعاصرة صـ ١٢٨٨، دار الشروق ، بيروت .

(٥) مفاتيح الغيب للإمام الرازى المجلد السابع ١٤ / ٨٢ بتصرف يسير .

٣- لبيان أن كل شيئ عنده بمقدار معلوم وأجل محدود .

٤- زيادة اليقين حتى لا ندع مجالا للشك والريب فى خلقه .

٥- ليعلم رسوله-ﷺ-الحلم والصبرعلى أذى المشركين فلا يستعجل عقابهم.

وإذا كان الله-ﷻ-قد تمهل فى خلق السموات والأرض وهو القادر على كل شيئ ، فما بالنا نحن ونحن العاجزون عن بلوغ تلك القدرة !.. كما حث النبى-ﷺ-على التأنى بل وجعله جزء من النبوة ، قال رسول-ﷺ-: " السمت[١] الحسن والتؤدة[٢] والاقتصاد[٣]جزء من أربعة وعشرين جزء من النبوة"[٤]. يريد-ﷺ-أن هذه الخصال من شمائل الأنبياء-عليهم الصلاة والسلام-وأنها جزء من أجزاء فضائلهم ، فاقتدوا بهم فيها ، وتابعوهم عليها ، وليس معناها أن النبوة تتجزأ ، ولا أن من جمع هذه الخصال كان نبيا ، ويحتمل أن يكون معناه أن هذه الخلال مما جاءت به النبوة ، ودعا إليها الأنبياء ، وقيل معناه :أن من جمع هذه الخصال لقيه الناس بالتوقير والتعظيم وألبسه الله لباس التقوى الذي ألبس أنبياءه-عليهم الصلاة والسلام-فكأنها جزء من النبوة"[٥].

كما قال رسول الله-ﷺ-للأشج[٦]:"إن فيك لخصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة "[٧].قال الإمام النووي : "الحلم " العقل وأما "الأناة " فهي التثبت وترك العجلة ، وسبب قول النبي-ﷺ- ذلك ما جاء فى حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبي -ﷺ- وأقام الأشج عند رحالهم ، فجمعها وعقل ناقته ، ولبس أحسن ثيابه ، ثم أقبل إلى النبي-ﷺ-وأجلسه إلى جانبه ، ثم قال لهم النبي-ﷺ-:"تبايعون على أنفسكم وقومكم " فقال القوم : نعم ، فقال الأشج: يا رسول الله ، إنك لم تزاول الرجل عن شيئ أشد عليه من دينك ، نبايعك على أنفسنا ، وترسل من يدعوهم ، فمن أتبعنا كان منا ، ومن أبى قاتلناه ، قال:

---

(١) أى السيرة المرضية والطريقة المستحسنة ، وقيل السمت الطريق ويستعار لهيئة أهل الخير . (تحفة الأحوذى ١٥٠/٦) وفى الفائق ، السمت ، أخذ المنهج ولزوم المحجة . (الفائق فى غريب الحديث ١٩٨/٢ ، لمحمود بن عمر الزمخشري ، دار المعرفة ،لبنان ،الطبعة الثانية تحقيق على محمد البجاوى ،ومحمد أبو الفضل إبراهيم ..

(٢) بضم التاء وفتح الهمزة أى التأنى فى جميع الأمور(تحفه الأحوذى ١٥٠/٦).

(٣) أى التوسط فى الأحوال والتحرز عن طرفي الإفراط والتفريط . (تحفه الاحوذى ١٥٠/٦).

(٤) أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب البر والصلة،باب ما جاء فى التأنى والعجلة ٣٦٦/٤ -،رقم الحديث (٢٠١٠) عن عبد الله بن سرجس المزني . وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب . دار الحديث القاهرة.

(٥) تحفة الأحوذى ١٥١/٦.

(٦) المنذر بن الحارث بن زياد بن عصر بن عوف بن عمرو بن عوف ، وفد إلى النبى فى وفد عبد القيس (أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لـ عز الدين بن الأثير ١٣٥/١ ، ١٣٦ ، دار الفكر ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م).

(٧) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه ٤٨/١، كما أخرجه مطولا من حديث أبى سعيد الخدرى ، نفس الكتاب والباب ٤٨/١، كما أخرجه الترمذي كتاب البر والصلة،باب ما جاء فى التأنى والعجلة ٣٦٧،٣٦٦/٤ ،رقم الحديث(٢٠١١) عن ابن عباس وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب.

"صدقت إن فيك خصلتين ..."الحديث ، قال القاضي عياض[١]:" فالأناة تربصه حتى نظر فى مصالحه ولم يعجل"[٢].

فالعجلة من الشيطان وصدق رسول الله-ﷺ-حيث قال : "التأني من الله والعجلة من الشيطان وما أحد أكثر معاذير من الله وما من شيئ أحب إلى الله من الحمد"[٣].وفى رواية أخرى أن رسول الله-ﷺ-قال :"الأناة من الله ، والعجلة من الشيطان"[٤].

قال الإمام المناوى : " التأني من الله " أى مما يرضاه ويثيب عليه ، " والعجلة من الشيطان "أى هو الحامل عليها بوسوسته ؛ لأن العجلة تمنع من التثبت والنظر فى العواقب"[٥] يقول ابن حجر:"وإنما كانت العجلة من الشيطان ؛ لأن عندها يروح شره على الإنسان من حيث لا يشعر؛ بخلاف من تمهل وتروى عند الإقدام على عمل يريده فإنه تحصل له بصيرة به ومتى لم تحصل تلك البصيرة فلا ينبغي الاستعجال"[٦].

هذه الأحاديث النبوية وغيرها الكثير توضح لنا أن التبين والتأني من الخصال النبوية الحميدة التى يحبهما الله ورسوله-ﷺ-والتي رغبنا فيهما القرآن وحثت عليهما السنة النبوية المطهرة ؛ لذلك كان من الواجب علينا الامتثال لأوامر الله وسنة رسوله فنتأنى فى أقوالنا وأفعالنا وأمورنا كلها ، سواء أكانت عبادة أم غيرها ، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:التأنى في الصلاة،، والتأنى فى تلاوة القرآن الكريم ،، والتأنى والتثبت عند تلقى الأخبار،، والتأنى فى القول .....

---

[١] عياض بن موسى بن عياض بن عمرون أبو الفضل عالم المغرب وإمام أهل الحديث فى وقته، توفى بمراكش مسموما ٥٤٤هـ ، ١١٤٩م، من تصانيفه الشفا بتعريف حقوق المصطفى (الأعلام للزركلى ٩٩/٥ ، الطبعة الثامنة ١٩٨٩م،دار العلم للملايين).

[٢] صحيح مسلم بشرح النووي ١٨٩/١.

[٣] ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ، كتاب الذكر والدعاء والترغيب فى الإكثار من ذكر الله سرا وجهرا ٢ / ٢٨٤ ، رقم الحديث (٢٤١٩) ، عن أنس بن مالك ، وقال المنذرى : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح . (الترغيب والترهيب ، لـ المنذرى دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٧ ه ، الطبعة الأولى المحقق / إبراهيم شمس الدين) .كما ذكره أبو يعلى فى مسند ٧٥ / ٢٤٧ ، رقم الحديث (٤٢٥٦) .كما ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ، كتاب الأدب ، باب ما جاء فى الرفق ٨ / ١٩ ، وقال الهيثمى، رجاله رجال صحيح ، دار الريان للتراث ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، بيروت ١٤٠٧ هـ .

[٤] أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب البر والصلة ، باب (٦٦) ما جاء فى التأني والعجلة،٤ / ٣٦٧ ، رقم الحديث (٢٠١٢) ، عن أبى عباس بن سهل بن سعد الساعدى عن أبيه عن جده ، وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، دار الحديث ، القاهرة .

[٥] فيض القدير ٣ / ١٨٤ ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ١٣٥٦ ، الطبعة الأولى .

[٦] الزواجر عن اقتراف الكبائر ، لـ ابن حجر ، صـ ١٠٧.

أولا : التأنى فى الصلاة :

الصلاة هى عماد الدين ، والركن الثانى من أركان الإسلام ، والعبادة الروحية التى يقف فيها المؤمن بين يدى خالقه-ﷻ-لذلك كان ولابد أن يراعى فيها آدابا وتعاليم ، وضحها لنا القرآن الكريم ، وبينتها السنة العطرة ، وهذه الآداب وتلك التعاليم ، منها ما يتعلق بهيئة المصلى عند السير إليها ، وهيئته عند أدائها. **أما الأول** : "فيستحب المشى إلى الصلاة بسكينة ووقار، ويقارب بين خطاه ، ولا يشبك أصابعه ، وإذا أقبل إلى المسجد أن يقبل بخوف ووجل وخشوع وخضوع ، وأن تكون عليه السكينة والوقار ، ما أدرك صلى وما فات قضى"[١].

ولقد روى عن النبى-ﷺ-أنه قال :"إذا سمعتم الإقامة فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا"[٢]. والوقار كما فى الفتح بمعنى "السكينة ، وذكر على سبيل التأكيد"[٣] قال الإمام النووى: "والظاهر أن بين السكينة والوقار فرق ، وأن السكينة التأنى فى الحركات واجتناب العبث ونحو ذلك ، والوقار فى الهيئة ، وغض البصر، وخفض الصوت ، والإقبال على طريقه بغير التفات ونحو ذلك"[٤].

"ولقد اختلف أهل العلم فى المشى إلى المسجد ، فمنهم من رأى الإسراع ، وإن خاف فوت التكبيرة الأولى ، ومنهم من كره الإسراع واختار أن يمشى على تؤدة ووقار ، وإن خاف فوت التكبيرة الأولى... وهذا هو الصواب"[٥].قال الإمام النووى عند شرح الحديث : "والنهى عن إتيانها سعيا سواء فيه صلاة الجمعة وغيرها ، سواء خاف فوت تكبيرة الإحرام أم لا ، والمراد بقول الله تعالى : " فاسعوا إلى ذكر الله"[٦] الذهاب ، يقال : سعيت فى كذا والى كذا إذا ذهبت إليه وعملت فيه ، والحكمة من إتيانها بسكينة والنهى عن السعى ؛ أن الذاهب إلى صلاة عامدا فى تحصيلها ساعيا إليها ، فينبغي أن يكون متأدبا بآدابها على أكمل الأحوال"[٧].

قال الإمام المناوى : "يندب لقاصد الجماعة المشى إليها بسكينة ووقار ، وإن خاف فوت التحرم ، وأن لا يعبث فى طريقه إليها ولا يتعاطى مالا يليق بها"[٨]. وهذا هو القول ... فالمصلى ينبغى عليه التأنى

---

[١] شرح العمدة فى الفقه لأحمد بن عبد الحميد بن تيمية الحرانى أبو العباس ٤ / ٥٩٦ ، دار مكتبة العبيكان الرياض ١٤١٣ ، الطبعة الأولى ، تحقيق د / سعود صالح العطيشان .

[٢] أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأذان ، باب لا يسعى إلى الصلاة وليأت بالسكينة والوقار ١ / ٢٠٤ ، رقم الحديث(٦٣٦)عن أبى هريرة .

[٣] فتح البارى ٢ / ١٣٩ ، بتصرف .

[٤] صحيح مسلم بشرح النووى ٥ / ١٠٠ بتصرف يسير.

[٥] تحفة الأحوذى ٢٨٩/٢ بتصرف .

[٦] سورة الجمعة ، من الآية: ٩

[٧] صحيح مسلم بشرح النووى ٩٩/٥ .

[٨] فيض القدير ١ / ٢٩٤ بتصريف يسير .

عند مشيه إلى الصلاة ، ما دام قد نوى الصلاة وإدراكها ، وإذا كان المصلى مأمورا بالتأني فى هيئته عند المشى إلى الصلاة فمن باب أولى يجب علية التؤدة والتأنى عند أداء أركانها ، وركوعها ، وسجودها ، وقراءتها ، لا سيما وقد قال المولى-ﷻ-آمرا بالمحافظة عليها" حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين"[1]. فلا نكون عند أدائها كمن يثقل عليها حمل ويريد قذفه ، أو كمن يكون لسان حاله أراحنا الله منها بدلا من أن يكون أراحنا الله بها ؛ ولذا مدح الله-ﷻ-المؤمنين المحافظين عليها في أكثر من موضع في القرآن ، ففي سورة (المؤمنون) جعل الفلاح والفوز لأولئك الخاشعين في صلاتهم ، فقال:" قد أفلح المؤمنون {} الذين هم في صلاتهم خاشعون"[2].قال الإمام الشنقيطي:"أصل الخشوع : السكون الطمأنينة والانخفاض ، وهو في الشرع : خشية من الله تكون في القلب ، فتظهر أثارها على الجوارح"[3]."والخشوع في الصلاة هو : حضور القلب بين يدي الله تعالي مستحضرا لقربه ، فيسكن لذلك قلبه ، وتطمئن نفسه ، وتسكن حركاته ، ويقل التفاته متأدبا بين يدي ربه ، مستحضرا جميع ما يقوله ويفعله في صلاته من أولها إلي أخرها ؛ فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الرديئة ، وهذا روح الصلاة والمقصود منها ، وهو الذي يكتب للعبد ؛ فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب وإن كانت مجزيه مثابا عليها ، فإن الثواب علي حسب ما يعقل منها"[4].

وقد روي في سبب نزول قوله تعالي "الذين هم في صلاتهم خاشعون" " أن رسول الله-ﷺ-كان إذا صلي رفع بصره إلي السماء ، فنزل :" الذين هم في صلاتهم خاشعون"[5]. فالخشوع لا شك إنما يحصل بالتأني فى الحركات والركوع والسجود ، ولا يحصل مع الاستعجال وعدم التدبر فى معانى ما يذكره من الآيات ، والذكر ، والتسبيح ، ونلاحظ فى هذه السورة ، أن المولى-ﷻ-ابتدأ عند ذكر صفات المؤمنين-الموصوفين بالفلاح الوارثين للفردوس-بخشوعهم فى الصلاة ، ثم ختمها بالمحافظة عليها ، فقال :"والذين هم على صلواتهم يحافظون"[6] مما يدل على أهمية هذا الركن ، وربما قد يتوهم البعض أنه تكرار ، وليس كذلك ؛ قال الإمام الرازي :" إنما أعاد ذكرها ؛ لأن الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين ، فإن الخشوع صفة للمصلى فى حال الأداء لصلاته ، والمحافظة هى التعهد بشروطها من وقت وطهارة وغيرهما ، والقيام على أركانها ، وإتمامها ؛حتى يكون ذلك دأبه فى كل وقت"[7]. ولذلك فصلهما ،" للإيذان بأن كلا منهما فضيلة مستقلة على حيالها ، ولو قرنا فى الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع

---

[1] سورة البقرة ، الآية : ٢٣٨

[2] سورة المؤمنون ، الآية: ١ ، ٢.

[3] أضواء البيان ٥ / ٧٥٥ ، وينظر التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي ٣ / ٤٨ ، ط دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٣ ، ١٩٨٣ م ، المحرر الوجيز ٤ / ١٣٦.

[4] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ، صـ ٥٤٨ .

[5] أسباب النزول للواحدي صـ٢١٩، وينظر لباب النقول فى أسباب النزول لجلال الدين السيوطى صـ ٣٠٣ .

[6] سورة المؤمنون ، الآية: ٩ .

[7] مفاتيح الغيب للإمام الرازى المجلد الثانى عشر ٢٣ / ٧٢ ، وينظر التسهيل ٣ / ٤٩ .

والمحافظة عليها فضيلة واحدة"[1]. أما عن إفراد الصلاة فى الآية الأولى ، وجمعها فى الثانية فيقول صاحب " الكشاف":"وحدت أولا ؛ ليفاد الخشوع فى جنس الصلاة ، أى صلاة كانت ، وجمعت آخرا ؛ لتفاد المحافظة على أعدادها وهى الصلوات الخمس ، والوتر ، والسنن الرتبة مع كل صلاة ، وصلاة الجمعة ، والعيدين ، والجنازة ، والاستسقاء ، والكسوف ، والخسوف ، وصلاة الضحى ، والتهجد ، وصلاة التسابيح ، وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل"[2].

ونظير هذه الآية الشريفة ، ما جاء فى سورة " المعا رج " حين وصف المولى-ﷻ-الإنسان بالهلع ، فهو شديد الجزع عند مس الضر ، شديد الحرص والمنع عند الخير ، ثم استثنى من هذا الجنس الموصوف بتلك الصفة عدة أشخاص وصفهم بعدة صفات ، قال عز من قائل :"**إن الإنسان خلق هلوعا {} إذا مسه الشر جزوعا {} وإذا مسه الخير منوعا {} إلا المصلين {} الذين هم على صلاتهم دائمون {} والذين في أموالهم حق معلوم {} للسائل والمحروم {} والذين يصدقون بيوم الدين {} والذين هم من عذاب ربهم مشفقون {} إن عذاب ربهم غير مأمون {} والذين هم لفروجهم حافظون {} إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين {} فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون {} والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون {} والذين هم بشهاداتهم قائمون {} والذين هم على صلاتهم يحافظون**"[3].
قال الإمام الشنقيطى:"بدأ الله بأولئك المستثنين وختمهم بالصلاة ، مما يفيد أن الصلاة أصل لكل خير ، ومبدأ لهذا المذكور كله ، لقوله تعالى: " واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين"[4] "فهى عون على كل خير ، ولقوله تعالى:"إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر"[5] "فهى سياج من كل منكر ، فجمعت طرفي المقصد شرعا ، وهما العون على الخير والحفاظ من الشر ، أى جلب المصالح ودرء المفاسد"[6].

كما أنها لأهميتها ذكر لها وصفين : أحدهما : المداومة عليها وهو ما أشار إليه بقوله: "الذين هم على صلاتهم دائمون" والثاني : المحافظة عليها ، وأشار إليه بقوله "والذين هم على صلاتهم يحافظون" قال الزمخشرى : " دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها ، لا يخلون بها ، ولا يشتغلون عنها بشيئ من الشواغل ، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ، ومواقيتها ويقيموا أركانها ، ويكملوا بسننها

---

[1] إرشاد العقل السليم لأبى السعود٦ / ١٢٥.
[2] الكشاف للزمخشرى ٣ / ١٨١ .
[3] سورة المعارج ، الآيات: ١٩ : ٣٤ .
[4] سورة البقرة ، الآية: ٤٥ .
[5] سورة العنكبوت ، من الآية: ٤٥ .
[6] أضواء البيان ٨ / ٤٦١ ، ٤٦٢ .

وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم ، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات ، والمحافظة على أحوالها"[١].

ولأهمية التأنى فى الصلاة ، والخشوع فيها ، وإتمام أركانها وحركاتها ، ذم الله-ﷻ-من لم يحافظ عليها ، بل وتوعدهم بالعذاب ، قال تعالى:" فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا "[٢].قال الإمام السعدي : " أضاعوا الصلاة التى أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها فتهاونوا بها ، وضيعوها ، وإذا ضيعوا الصلاة التى عماد الدين ، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين ، و التي هي آكد الأعمال ، وأفضل الخصال ، كانوا لما سواها من دينهم أضيع وله أرفض"[٣] وقال القرطبى: "من لم يحافظ على كمال وضوئها ، وركوعها وسجودها ، فليس بمحافظ عليها ، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه"[٤]. ولذلك كان جزاء من ضيعها الغي والضلال ، وهو ما أشار إليه بقوله " فسوف يلقون غيا " والغي :"الضلال والخيبة"[٥].

ولم يكن الضلال والخسران ، فقط هو نصيبهم من العذاب ، بل لقد توعدهم " بالويل " فقال:"فويل للمصلين {} الذين هم عن صلاتهم ساهون"[٦]. "والويل كلمة تقال عند الهلكة ، وقيل ويل قبوح ، وقيل : الشديد من العذاب ، وقيل : الهلاك يستعمل لمن لا يرجى خلاصه"[٧]. قال الزمخشرى :" هم الذين يسهون عن الصلاة ، قلة مبالاة بها حتى تفوتهم ، أو يخرج وقتها ، أولا يصلونها كما صلاها رسول الله-ﷺ- والسلف ، ولكن ينقرونها نقرا من غير خشوع وإخبات ، ولا اجتناب لما يكره فيها من العبث باللحية ، والثياب ، وكثرة التثاؤب والالتفات ، لا يدرى الواحد منهم عن كم انصرف ، ولا ما قرأ من السور"[٨]. وقال الإمام المراغى :" فهم وإن سماهم مصليين ؛ لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، وصفهم بالسهو عن حقيقتها ولبها ، وهو توجه القلب إلى الله ، والإخبات إليه وهو المشعر بعظمته"[٩].

---

[١] الكشاف ٤ / ٦١٥ .

[٢] سورة مريم ، من الآية: ٥٩ .

[٣] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان صـ ٤٩٧ .

[٤] تفسير القرطبى المجلد السادس ١١ / ٨٢ ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط الأولى ١٤٠٨ ، ١٩٨٨

[٥] مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى، صـ ٢٠٣ ، باب الغين.

[٦] سورة الماعون ، الآيات: ٤، ٥ .

[٧] التبيان فى غريب القرآن لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصرىصـ ٩٦ ، دار الصحابة للتراث ، مصر ١٤١٢ ه ، ١٩٩٢م ، المحقق / فتحى أنور الدابلوى . الطبعة الأولى .

[٨] الكشاف ٤ / ٨٠٩ .

[٩] تفسير المراغى ١ /.٣٣ .

وقد يتساءل البعض ، ما الفرق بين قوله " عن صلاتهم " وقولك " فى صلاتهم " ؟ والجواب :" أن معنى قوله (عن) أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين ، أو الفسقة الشطار من المسلمين ، وأما قولك " فى " فالمعنى أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة الشيطان أو حديث نفس وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم"[١]. قال ابن كثير :" لم يقل فى صلاتهم ساهون ؛ لأن المعنى أنهم ساهون إما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى أخره دائما أو غالبا ، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به ، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها . فاللفظ يشمل ذلك كله ، ولكن من اتصف بشيء من ذلك له قسط من هذه الآية ، ومن اتصف بجميع ذلك . فقد تم له نصيبه منها وكمل له النفاق العملي"[٢]. قال المولى-ﷻ-فى صفة صلاة المنافقين:"إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يرآؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا"[٣].

قال ابن كثير: "هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها وهى الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها ؛ لأنهم لا نية لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ، ولا خشية ، ولا يعقلون معناها"[٤]. فلقد روى عن العلاء بن عبد الرحمن أنه دخل على أنس ابن مالك فى داره بالبصرة حين انصرف من الظهر ، وداره بجانب المسجد ، فلما دخلنا عليه ، قال : أصليتم العصر ؟ فقلنا له : إنما انصرفنا الساعة من الظهر ، قال : فصلوا العصر ، فقمنا فصلينا ، فلما انصرفنا ، قال : سمعت رسول الله-ﷺ-يقول : " تلك صلاة المنافقين يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان[٥]قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا"[٦]. قال الإمام النووى :" فقوله : " فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا " تصريح بذم من صلى مسرعا بحيث لا يكمل الخشوع ، والطمأنينة ، والأذكار ، والمراد بالنقر سرعة الحركات كنقر الطائر"[٧].

---

[١] تفسير الكشاف ٤ / ٨٠٩ بتصرف .

[٢] تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ٤ / ٥٥٥ بتصرف يسير ، دار الفكر بيروت ١٤٠١ هـ .

[٣] سورة النساء ، الآية: ١٤٢ .

[٤] تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ١ / ٥٦٩.

[٥] قوله " بين قرنى الشيطان " اختلفوا فيه ، فقيل : هو على حقيقته ، وظاهر لفظه . والمراد أنه يحاذيها بقرنيه عند غروبها وكذا عند طلوعها ؟ لأن الكفار يسجدون لها حينئذ فيقارنها ليكون الساجدون لها فى صورة الساجدين له ، ويخيل لنفسه ولأعوانه أنهم إنما يسجدون له ، وقيل هو على المجاز والمراد بقرنه وقرنيه علوه وارتفاعه وسلطانه وتسلطه وغلبته ، قال الخطابي : هو تمثيل معناه أن تأخيرها تزيين الشيطان ومدافعته لهم عن تعجيلها كمدافعة ذوات القرون لما تدفعه والصحيح الأول.(صحيح مسلم بشرح النووي ٥ / ١٢٤).

[٦] أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب التبكير بالعصر ،١ / ٤٣٤ ، رقم الحديث (٦٢٢).

[٧] صحيح مسلم بشرح النووي ٥ / ١٢٤ .

لذلك نجد النبى-ﷺ-ينهى فى الصلاة عن التشبه بالغراب فى النقر، فقد روى عن عبد الرحمن بن شبل الأنصارى[١] قال :"نهى رسول الله-ﷺ-عن افتراش السبع ونقرة الغراب ، وأن يوطن الرجل المكان كما يوطن البعير"[٢] "فتضمن الحديث النهى فى الصلاة عن التشبه بالحيوانات ، وبالغراب فى النقرة ، وبالسبع بافتراشه ذراعيه فى السجود ، وبالبعير فى لزومه مكانا معينا من المسجد يتوطنه كما يتوطن البعير"[٣].والمراد من التشبيه فى قوله " نقرة الغراب " أنه يخفف السجود ولا يمكث فيه قدر وضع الغراب منقاره فيما يريد أكله "[٤]...كما عد-ﷺ-من لا يتم ركوعه وسجوده سارقا بل أسوأ الناس سرقة ... فقد روى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال:" أسوأ الناس سرقة الذى يسرق صلاته" ، قالوا: "يا رسول الله ، كيف يسرق صلاته؟! قال:"لا يتم ركوعها ولا سجودها"[٥] قال الباجى:" إنما قصد أن يعلمهم أن الإخلال بإتمام الركوع والسجود كبيرة من الكبائر وهى أسوأ مما تقرر عندهم أنه فاحشة .... وإنما خص الركوع والسجود ؛ لأن الإخلاص في الغالب إنما يقع بهما"[٦]. وإنما سماه سرقة ، على معنى خيانة فيما أؤتمن على أدائه"[٧]. قال الإمام المناوى: "ووجه كونه أسوأ ، أن السارق إذا وجد مال الغير قد ينتفع به فى الدنيا

---

[١] عبد الرحمن بن شبل بن عمرو بن زيد بن نجدة بن مالك بن لوذان الأنصارى أحد نقباء الأنصار، روي عن النبي وروى عنه تميم بن محمود ويزيد بن خمير مات فى إمارة معاوية بن أبى سفيان (الإصابة فى تمييز الصحابة ٣١٥/٤ ، وانظر تهذيب التهذيب ١٧٥/٦).

[٢] سنن الدارمى لعبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، كتاب الصلاة ، باب النهى عن الافتراش ونقرة الغراب ، ١ / ٣٤٨ ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧ ه . المحقق / فؤاد احمد زمرلى ، خالد السبع العلمي ، ومسند احمد ٣ / ٤٢٨ ، مؤسسة قرطبة بمصر ، وصحيح بن حبان لمحمد بن حبان بن احمد أبو حاتم التميمى البستى ٦ / ٥٣ . تحقيق شعيب الأرنؤوط ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٤ ه ، ١٩٩٣م ، وسنن البيهقى لأحمد بن الحسين على بن موسى أبى بكر البيهقى كتاب الصلاة ، باب التغليظ على من لا يتم الركوع والسجود ٢ / ١١٨ ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ١٤١٤ ه ١٩٩٤م ، تحقيق محمد عبد القادر عطا .

[٣] الصلاة وحكم تاركها وسياق صلاة النبى - ﷺ - من حين كان يكبر إلى أن يفرغ " لمحمد بن أبى بكر أبوب الزرعى أبو عبد الله بن القيم الجوزية صـ ١٧٢ ، دار النشر : الحفان والجابى ، دار ابن حزم ، قبرص ، بيروت ١٤١٦ ه ، ١٩٩٦م ، الطبعة الأولى ، المحقق بسام عبد الوهاب الجابى .

[٤] النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٥ / ١٠٤ ، باب النون مع القاف بتصرف .

[٥] أخرجه الدارمى فى سننه، كتاب الصلاة ، باب فى الذى لا يتم الركوع والسجود ١ / ٣٥٠ ، عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه ، كما أخرجه أحمد ٥ / ٣١٠ ، كما ذ كره ابن خزيمة فى صحيحه(لمحمد بن إسحاق بن خزيمة أبى بكر السلمي النيسابورى) كتاب الصلاة ، باب إتمام السجود والزجر عن انتقاصه ، وتسمية المنتقص ركوعه وسجوده سارقا أو هو سارق فى صلاته ١ / ٣٣٢ ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٢ ه ، ١٩٩٢م تحقيق د / محمد مصطفى الأعظمى.

[٦] المنتقى شرح موطأ الإمام مالك للإمام الباجى (للقاضى أبى الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجى الأندلسى من أعيان الطبقة العاشرة من علماء السادة المالكية المولود ٤٠٣ ، المتوفى سنة ٤٩٤) ١ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ دار الكتاب العربي بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ ه ، ١٩٨٣م .

[٧] تنوير الحوالك للسيوطى ١ / ١٤٠ ، المكتبة التجارية مصر ١٣٨٩ ه ، ١٩٦٩م .

أو يستحل صاحبه أو يحد فينجو من عذاب الآخره ، بخلاف هذا فإنه سرق حق نفسه من الثواب ، وأبدل منه العقاب فى العقبى"[١] وقد روى عن النبى-ﷺ-أنه قال :"من صلى الصلوات لوقتها وأسبغ لها وضوءها وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهى بيضاء مسفرة تقول : حفظك الله كما حفظتني ، ومن صلى لغير وقتها ، ولم يسبغ لها وضوءها ، ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها خرجت وهى سوداء مظلمة ، تقول : ضيعك الله كما ضيعتني حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق ، ثم ضرب بها وجهه"[٢].

قال الإمام المناوى: "معنى قول الصلاة " حفظك الله كما حفظتني " أى حفظا مثل حفظك لى بإتمام أركاني ، وكمال إحساني بالتأدية بخشوع القلب والجوارح .... وقولها " ضيعك الله كما ضيعتني " أي ترك كلاءتك وحفظك حتى تهلك جزاء لك على عدم وفائك بتبديل أركاني"[٣] وقال الإمام الغزالى : " اعلم فى الحال أنك قائم بين يدى الله-ﷻ-وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدى بعض ملوك الزمان ، إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدر فى دوام قيامك فى صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب فى أن يعرفك بالصلاح ، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع ، وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك ، وقل لها : إنك تدعين معرفة الله وحبه ، أفلا تستحيين من إستجرائك عليه مع توقيرك عبدا من عباده ؟ أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى؟!"[٤].

فأحرص أيها المسلم ، وأيتها المسلمة ، على المحافظة على الصلاة وعدم تضييعها ؛ فبصلاحها يصلح حالك ، وإيمانك ، ودعاؤك ، إذ هى الصلة بينك وبين خالقك ورازقك-ﷻ-فإذا أفسدتها أفسدت حالك ، وضيعت إيمانك ، وما استجيب لدعائك ، وأعلم أن الصلاة هى أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامه . فقد روى أن النبى-ﷺ-قال:"إن أول ما يحاسب الناس عليه يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، قال: يقول ربنا-ﷻ-لملائكته-وهو أعلم-:" أنظروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئا . قال:" انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ " فإن كان له تطوع ، قال : "

---

[١] فيض القدير للمناوى ١ / ٥١٣ ، ٥١٤ .

[٢] ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ، باب المحافظة على الصلاة لوقتها ١ / ٣٠٢ ، عن أنس بن مالك ، كما ذكره البيهقى فى شعب الأيمان ٣ / ١٤٤ ، عن عبادة بن الصامت . بسند ضعيف .

[٣] فيض القدير للمناوى ١ / ٢٤٩ بتصريف يسير .

[٤] إحياء علوم الدين ، ١/ ١٦٦ ، دار المعرفة ، بيروت لبنان .

أتموا لعبدي فريضته " . ثم تؤخذ الأعمال على ذلك"[1]. قال ابن عبد البر :" أما إكمال الفريضة من التطوع ، فإنما يكون ذلك-والله أعلم-فيمن سها عن فريضته فلم يأت بها ، أو لم يحسن ركوعها ولم يدر قدر ذلك ، وأما من تعمد أو نسى ثم ذكرها فلم يأت بها عامدا أو اشتغل بالتطوع عن أداء فرضه وهو ذاكر له ، فلا تكمل له فريضته من تطوعه"والله أعلم"[2].

وما أحوجنا إلى حسناتنا وتطوعنا يوم القيامة !! جعلنا الله وإياكم من الخاشعين القانتين المحافظين على صلاتنا وركوعنا وسجودنا إلى يوم الدين .

ثانيا : التأني في تلاوة القرآن بتدبره[3]

القرآن الكريم هو : كلام الله المنزل على خاتم النبيين وأشرف المرسلين النبي الأمي المبعوث رحمة للعالمين-سيدنا محمد ﷺ-ولأنه جامع الحكم والعلوم كلها ، فيه خيري الدنيا والآخرة ؛ حثنا الله-ﷻ-ورسوله بتلاوته مع تدبر معانيه والوقوف على أسراره ؛ لكي نقف على غرائبه وعجائبه التي لا تحصى ولا تعد ، قال الإمام المراغى:" ومن يتله وهو معرض عن تدبره والتأمل فى العبرة منه يكن كالمستهزئ بربه ، وما مثله إلا مثل من يرسل كتابا إلى آخر لغرض خاص فيقرؤه المرسل إليه مثنى وثلاث ورباع ، ويترنم به ولا يلتفت إلى معناه ، ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه ، أيرضى المرسل بمثل هذا ويكتفي به عن إجابة طلبه أم يعده استهزاء به ، فعلى المؤمن في كل زمان ومكان أن يتلو القرآن بالتدبر والتفهم والعمل بما فيه ، فإن كان أميا أو أعجميا فإنه ينبغي أن يطلب من أهل الذكر أن

---

[1] أخرجه أبو داود فى سننه ، كتاب الصلاة ، باب قول النبى (ص) " كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه " ١ / ٢٢٩ ، واللفظ له ، رقم الحديث (٨٦٤) عن أبى هريرة ، كما أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب صفة الصلاة ، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، ٢ / ٢٧٠ وقال : حديث حسن غريب ، ط ، دار الحديث القاهرة .

[2] التمهيد لابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمرى ٢٤ / ٨١ .

[3] التدبر مصدر وهو مأخوذ من مادة(دبر) التي يقول عنها ابن فارس: أصل هذا الباب أن جله في قياس واحد ، وهو أخر الشيء ، وخلفه خلاف قبله ، في معظم الباب أن الدبر خلاف القبل ، وفى الحديث: لا تدبروا وهو من الباب ، وذلك أن يترك كل واحد منها الإقبال على صاحبه بوجهه.(معجم مقاييس اللغة ٣٢٤/٢ ، كتاب الدال ، باب الدال والباء وما يثلثهما)قال ابن منظور: دبر الأمر تدبره نظر في عاقبته ، واستدبره رأى في عاقبته مالم ير في صدره ، وعرف الأمر تدبرا أى بآخره ، والتدبر في الأمر : التفكير فيه ، وفلان ما يدرى قبال الأمر من دبره أي أوانه من آخره ، ويقال : إن فلانا لو استقبل من أمره وما استدبره في أخره لا سترشد لأمره (لسان العرب ٢ / ١٣٢٠ ، باب الدال) والتدبر اصطلاحا : النظر في عواقب الأمور ، وهو قريب .من التفكر إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل والتدبر تصرفه في العواقب" التعريفات للجرجانى صـ٥٨، كتاب التاء ، وينظر التوقيف على مهمات التعاريف صـ١٦٧ ، الأولى ، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر بيروت ، دمشق ، المحقق د/ محمد رضوان الداية.

يفهموه معناه ويشرحوا مغزاه"[١].فيجب علينا التأني في تلاوة القرآن بتدبره وتفهم آياته بما تحتويها من الغرائب والعجائب.

قال الإمام ابن القيم[٢]: "تدبرالقرآن هو : تحديق ناظر القلب إلى معانيه ، وجمع الفكر على تدبره وتعقله وهو المقصود بإنزاله ، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر"[٣] فلا يتعجل في تلاوته دون فهم لمعانيه ، والوقوف على بدائعه وأسراره ، بل الواجب تدبره ؛ ليرى ما فيه من الفصاحة والبلاغة والإعجاز والنسق الواحد ، والترتيب الفريد بلا تضاد ولا تناقض ، قال تعالى :"أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"[٤].

فهذه الآية وردت بعد الحديث عن مكر المنافقين وكيدهم ، حينما أمرهم رسول-ﷺ-بطاعته وأخبرهم أن من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن يعصه فقد عصى الله ، فكان من أمرهم أن قالوا : إن محمدا قد أشرك ، يدعونا لنعبده من دون الله ، فقال تعالى مخبرا عن حالهم:"ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طآئفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا"[٥] فحالهم هو إظهار الولاء والطاعة لرسول-ﷺ-وإخفاء الحقد والعداوة ، لذا أمره المولى-ﷻ-بالأعراض عنهم فهو المتكفل بهم ، ثم اخبره-ﷻ-بأنهم لو تدبروا آياته-ﷻ- لعلموا وأيقنوا صدق ما يقوله رسول الله-ﷺ-لهم ؛ إذ لو كان ما يقوله من عند نفسه أو من عند غير الله لوجدوا فيه تناقضا واختلافا وتضادا لا حصر له ، قال الإمام الرازي:" اعلم أنه تعالى لما حكى عن المنافقين أنواع مكرهم وكيدهم ، وكان كل ذلك لأجل أنهم ما كانوا يعتقدون كونه محقا في ادعاء الرسالة صادقا فيه ، بل كانوا يعتقدون أنه مفتر ، فلا جرم أمرهم الله تعالى ، بأن ينظروا في الدلائل الدالة على صحة نبوته"[٦]. فالآية إنكار لإعراضهم عن التأمل في بلاغة القرآن وفصاحته التي يعجز عن الإتيان بها بشر ؛ مهما أوتى من علم ، قال أبو حيان: " هذا استفهام معناه الإنكار ؛ أي أفلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي ، ولا يعرضون عنه ، فإنه فى تدبره يظهر برهانه ، ويسطع نوره ، ولا يظهر لمن أعرض عنه ولم يتأمله"[٧]. "فالآية إنما تأمرهم بتدبر القرآن ، وتفهم معانيه المحكمة ، وألفاظه البليغة ؛ فهو الكفيل بتصحيح خطتهم

---

[١] تفسير المراغى ، ٢٠٦/١.

[٢] محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى الدمشقى أبى عبد الله ، مولده ووفاته فى دمشق ، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية وسجن معه فى قلعة دمشق وأطلق بعد موت ابن تيمية ، ألف تصانيف كثيرة ، منها : أعلام الموقعين ، والطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، وغيرهم ، توفى ٧٥١هـ،١٣٥٠م.(الأعلام للزركلى ٥٦/٦، التاسعة ١٩٩٠).

[٣] مدراج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم ٤٥١/١، دار الكتاب العربى ، بيروت لبنان ، ١٣٩٢هـ ، ١٩٧٢م ، تحقيق/ محمد حامد الفقى.

[٤] سورة النساء ، الآية : ٨٢ .

[٥] سورة النساء ، الآية: ٨١.

[٦] مفاتيح الغيب للرازي المجلد الخامس ١٥٦/١٠.

[٧] البحر المحيط ٣٠٥/٣ ، دار الكتاب الإسلامي القاهرة.

ومنهجهم ، ويخبرهم أنه لا اختلاف فيه ، ولا اضطراب ولا تعارض ؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد ؛ فهو حق من حق"[1].وهو خير دليل على صدق نبوته-ﷺ-" وذلك من ثلاثة أوجه : أولها : فصاحته ، وثانيها :اشتماله على الإخبار عن الغيوب ، وثالثها : سلامته عن الاختلاف ، وهو المذكور في هذه الآية.

وفى تفسير سلامته عن الاختلاف ثلاثة أوجه:الأول: معناه أن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطئون في السر على أنواع كثيرة من المكر والكيد ، والله تعالى كان يطلع الرسول-عليه السلام-على تلك الأحوال حالا فحالا ، ويخبره عنها على سبيل التفصيل ، وما كانوا يجدون في ذلك إلا الصدق ، فقيل لهم : إن ذلك لو لم يحصل بإخبار الله تعالى لما أطرد الصدق فيه ؛ ولظهر في قول محمد أنواع الاختلاف و التفاوت ، فلما لم يظهر ذلك علمنا أن ذلك ليس إلا بإعلام الله تعالى. الثاني : أن المراد أن القرآن كتاب كبير ، وهو مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم ؛ فلو كان ذلك من عند غير الله ؛ لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة ؛ لأن الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك ، ولما لم يوجد فيه ذلك علمنا أنه ليس من عند غير الله. الثالث : أن المراد منه الاختلاف في رتبة الفصاحة ؛ حتى لا يكون في جملته ما يعد في الكلام الركيك ، بل بقيت الفصاحة فيه من أوله إلى آخره على نهج واحد ، ومن المعلوم أن الإنسان وإن كان في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة ، فإذا كتب كتابا طويلا مشتملا على المعاني الكثيرة ، فلا بد وأن يظهر التفاوت في كلامه بحيث يكون بعضه قويا متينا ، وبعضه هينا نازلا ، ولما لم يكن القرآن كذلك ؛ علمنا أنه ليس من عند غير الله"[2].

وهكذا "فكل ألوان الاختلافات والاحتمالات التي نجدها في كلام البشر ، لا نجدها في القرآن الكريم ؛ مما يدل قطعا على أنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فهو قد أعجز ببلاغته وفصاحته وجزالته البلغاء والفصحاء ، وصور الحقائق تصويرا تاما بلا اختلاف ولا تناقض ، وأخبر عن الماضي السحيق خبرا صادقا موافقا للواقع ، وتحدث عن الحاضر ، ومكنونات الأنفس والضمائر بما يبهر ويعجب ويخرس الألسنة الناقدة ، وأنبأ عن بعض الأمور في المستقبل ؛ فجاء الحدث مطابقا لما أنبأ عنه ؛ ووضع أصول العقيدة والتشريع في القضايا العامة والخاصة ، وصور لنا عالم الغيب ، ومشاهد القيامة بصور مرئية محسوسة دون أن نشاهدها وننجذب إليها ، وترتسم صورها في أذهاننا دون أن نفارقها لشدة وقعها ، وبراعة تصويرها ، وصدق حكايتها وواقعيتها "الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد"[3].

---

[1]التفسير المنير ١٧١/٥ ،بتصرف.

[2]مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس ١٥٧/١٠ بتصرف .

[3] سورة الزمر، من الآية: ٢٣ .

ولو انصف المسلمون أنفسهم ؛ ما اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، ولو تدبروا ما فيه ، وفهموا ما رسمه لهم من طريق الحياة السوية لما انحدروا إلى ماهم عليه الآن ، فهو مرشد الهداية ونور الأمة ، وصراط الله المستقيم ، ومفتاح السعادة وطريق تحقق المصلحة ، وبناء الأمة وتحضرها ، قال تعالى:" إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا[١]"[٢] أفلا يتدبر هؤلاء أن هذا هو الكتاب المعجز ؟ أم أغلقت قلوبهم بأقفال فلا يفهمون ولا يعقلون ؟!! قال تعالى"أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"[٣] "أفلا يتدبرون القرآن ويتصفحونه ؛ فيعلمون بما أشتمل عليه من المواعظ والزواجر ، والحجج الظاهرة ، والبراهين القاطعة ؟ بل على قلوبهم أقفال! فهم لا يفهمون ولا يعقلون شيئا من معانيه ، ولا تتفتح قلوبهم للحق"[٤]. قال الزمخشرى-رحمه الله-:" فإن قلت لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها ؟ قلت:أما التنكير ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها فى ذلك أو يراد على بعض القلوب وهى قلوب المنافقين ، وأما إضافة الأقفال ؛ فلأنه يريد الأقفال المختصة بها وهى أقفال الكفر التي استغلقت فلا تتفتح"[٥].

فالقرآن هو خير كتاب أنزل على خير رسول أرسل ، ولو تدبره الإنسان لترقى به إلى الدرجات العلا في الدنيا والآخرة ... "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب"[٦]. فهو كتاب كثير الخير والبركة ، فيه شفاء لمن تداوى به ، وهداية لمن اهتدى بهديه ونجاة لمن استغاث بنفحاته ، و هذا لا يحصل لمن تلاه تلاوة سريعة بدون تفهم وتفكر. قال الإمام النيسابورى: " فمن حفظ حروفه وضيع حدوده كان مثله كمثل من علق اللؤلؤ والجواهر على الخنازير"[٧]. وقال الزمخشرى:" قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه ، وضيعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول " والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا . وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل ، والله ، ماهو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ، ولا الورعة ، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء ، اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين وأعذنا من القراء المتكبرين"[٨].

ونلاحظ في هذه الآية الكريمة : أن التدبر أسند إلى ضمير الجمع في قوله(ليتدبروا) بينما جاء التذكر لأولى الألباب بقوله(وليتذكر أولو الألباب) قال أبو حيان موضحا الحكمة من هذا :"أسند التدبر في

---

[١] سورة الإسراء ، الآية: ٩.

[٢] التفسير المنير ١٧٢/٥ بتصرف.

[٣] سورة محمد ، الآية: ٢٤

[٤] التفسير المنير ١٢٢/٢٥، ١٢٣ بتصرف .

[٥] الكشاف ٣٢٨/٤.

[٦] سورة ص ، الآية: ٢٩.

[٧] غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ٤٣١/٩.

[٨] الكشاف ٩٢/٤ ، عن الحسن.

الجميع وهو التفكر في الآيات والتأمل الذي يفضى بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء ، وأسند التذكر إلى أولى العقول ؛ لأن ذا العقل فيه ما يهديه إلى الحق وهو عقله فلا يحتاج إلا إلى ما يذكره فيتذكر"[١]. فالقرآن فيه من العبرة والعظة مالا يتدبرها إلا من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ..."إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد "[٢].

قال ابن القيم-رحمه الله-: " الناس عند سماع القرآن ثلاثة ؛ رجل قلبه ميت فذلك الذي لا قلب له ، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه ؛ ورجل له قلب حي مستعد ، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة ، إما لعدم ورودها ، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها ، فهو غائب القلب ، ليس حاضرا فهذا أيضا لا تحصل له الذكرى ، مع استعداده ووجود قلبه ، ورجل حي القلب مستعد ، تليت عليه الآيات فأصغى سمعه ، وألقى السمع وأحضر قلبه ، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه ، فهو شاهد القلب ، ملق السمع ، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة المشهودة ... **فالأول** : بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر ... **والثاني** : بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه فكلاهما لا يراه ... **والثالث** : بمنزلة البصير الذي حدق إلى جهة المنظور ، وأتبعه بصره ، وقابله على توسط من البعد والقرب ، فهذا هو الذي يراه ، فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور ، فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقاد مليء باستخراج العبر ، واستنباط الحكم ؛ فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار ، فإذا سمع الآيات كانت له نورا على نور ، وهؤلاء أكمل خلق الله ، وأعظمهم إيمانا وبصيرة ، حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم ، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه ، حتى قيل : إن مثل حال الصديق مع النبي-ﷺ-كمثل رجلين دخلا دارا ، فرأى أحدهما تفاصيل مافيها وجزئياته ، والآخر وقعت يده على مافى الدار ولم ير تفاصيله ولاجزئياته ، لكن علم أن فيها أمورا عظيمة ، لم يدرك بصره تفاصيلها ، ثم خرجا فسأله عما رأى في الدار ؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه لما عنده من شواهده ، وهذه أعلى درجات الصديقية ، ولا تستبعد أن يمن الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان ، فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان . فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفى قلبه نور من البصيرة ازداد بها نورا إلى نوره ، فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضا "فإن لم يصبها وابل فطل " والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها ، وموجباتها ، وأهل الجنة سابقون مقربون وأصحاب يمين ، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما"[٣].

قال الإمام القرطبى :" لمن كان له قلب أي عقل يتدبر به ، فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه"[٤] وقال الفراء : " وهذا جائز فى العربية أن تقول : مالك قلب ، وما قلبك معك ، وأين ذهب

---

[١] البحر المحيط ٣٩٦/٧ ،الطبعة الثانية ١٤١٣ ،١٩٩٢ مـ. دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة.

[٢] سورة ق ، الآية:٣٧.

[٣] مدارج السالكين ٤٤٢/١،٤٤٣ ..

[٤] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد التاسع ١٧/١٧.

قلبك ؟ تريد العقل لكل ذلك "[١] وقيل المعنى : " لمن كان له حياة ونفس مميزة ، فعبر عن النفس الحية بالقلب ؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها ، وقيل : القلب قلبان ؛ قلب محتشى بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع ، وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه فى الآخرة"[٢].وقال الزجاج فى معنى قوله :"أو ألقى السمع وهو شهيد " أى استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يسمع والعرب تقول " ألق إلى سمعك ، أى استمع منى ، ومعنى وهو شهيد أى وقلبه حاضر فيما يسمع"[٣]. "وفى الآية ترتيب حسن ؛ لأنه إن كان ذا قلب ذكى يستخرج المعاني بتدبره وفكره فذاك ، وإلا فلابد أن يكون مستمعا مصغيا إلى كلام المنذر ليحصل له التذكر"[٤]. فالمولى- ﷻ-يحث عباده على تدبر آياته ؛ ليحصل لهم النفع والخير الكثير من خلال فهمه والتفكر فيه والعمل به " فليس شيء أنفع للعبد فى معاشه ومعاده ، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن ، وإطالة التأمل ، وجمع الفكر على معاني آياته ، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها ، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغايتهما وثمراتهما ومآل أهليهما ، وتضع فى يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة ، وتثبت قواعد الإيمان فى قلبه ، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه ، وتريه صورة الدنيا والآخرة ، والجنة والنار فى قلبه ، وتحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم وتبصره مواقع العبر ، وتشهده عدل الله وفضله ، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه ويبغضه ، وصراطه الموصل إليه ، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه ، وقواطع الطريق وآفاتها ، وتعرفه النفس وصفاتها ، ومفسدات الأعمال ومصححاتها ، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم ، وسيماهم ، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه"[٥]. وكثير من الخصال والفوائد التي لانهاية لها .

قال مجاهد فى مقدمة تفسيره: "إن القرآن كتاب الله وكلامه ، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لانهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه ، والحق ما قاله سهل بن عبد الله التستري[٦]" لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم ، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله فى آية من كتابه"[٧]. فلنتدبر آيات

---

[١] معاني القرآن للفراء ٨٠/٣ ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ ، تحقيق د / عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، مراجعة الأستاذ على النجدي ناصف.

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد التاسع ١٧/١٧ درا الكتب العلمية بيروت ، لبنان.

[٣] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤٩/٥.

[٤] غرائب القرآن ور غائب الفرقان ١٠/ ٢٨٥.

[٥] مدارج السالكين ٤٥١/١.

[٦] من أعظم المشايخ المشهورين ، حفظ القرآن وهو ابن سبع ، له تصانيف نفيسة منها رقائق المحبين ومواعظ العارفين وجوابات أهل اليقين وغير ذلك ، مات سنة ٢٨٣ عن ٨٣ سنة ينظر طبقات الصوفية(الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية) لزين الدين محمد عبد الرءوف المناوى، الجزء الأول ، القسم الثاني ، صـ ٦٣٣ وما بعدها.

[٧] مقدمة تفسير مجاهد ٩/١ المنشورات العلمية ، بيروت.

الله-ﷻ-لننال به خيري الدنيا والآخرة وننال رضى المولى-ﷻ-وشفاعة رسوله-ﷺ-. قال الشيخ العراقي أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزى :"صنف الله-ﷻ-هذه المخلوقات فأحسن التركيب ، وأحكم الترتيب ، ثم عرضها على الألباب ، فأي لب أوغل فى النظر مدح على قدر فهمه فأحبه المصنف ، وكذلك أنزل القرآن يحتوى على عجائب الحكم ، فمن فتشه بيد الفهم وحادثه فى خلوة الفكر ، استجلب رضى المتكلم به ، وحظى بالزلفى لديه"[١] وقال الزركشى : " اعلم أنه ينبغى لمح موقع النعم على من علمه الله تعالى القرآن العظيم أو بعضه ، بكونه أعظم المعجزات ؛ لبقائه ببقاء دعوة الإسلام ، ولكونه-ﷺ-خاتم الأنبياء والمرسلين ، فالحجة بالقرآن العظيم قائمة على كل عصر وزمان ؛ لأنه كلام رب العالمين ، وأشرف كتبه جل وعلا ، فلير من عنده القرآن أن الله ، أنعم عليه نعمة عظيمة ، وليستحضر من أفعاله أن يكون القرآن حجة له لا عليه ؛ لأن القرآن مشتمل على أمور، والكف عن أمور، وذكر أخبار قوم قامت عليهم الحجة فصاروا عبرة للمعتبرين حين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم وأهلكو لما عصوا ، وليحذر من علم حالهم أن يعصى ، فيصير مآله مآلهم ، فإذا استحضر صاحب القرآن أن علو شأنه بكونه طريقا لكتاب الله تعالى ، وصدره مصحفا له ، انكفت نفسه عند التوفيق عن الرذائل ، وأقبلت على العمل الصالح الهائل ، وأكبر معين على ذلك حسن ترتيله وتلاوته ، قال تعالى لنبيه-ﷺ-:" ورتل القرآن ترتيلا[٢]"[٣]. أى اقرأه على تمهل مع بيان حروفه ؛ فيكون ذلك عونا لك على فهمه وتدبره قال الزجاج :" بينه تبيينا ، والتبين لا يتم بأن يعجل فى القرآن ، وإنما يتم بأن تبين جميع الحروف وتوفى حقها فى الإشباع"[٤]. والرتل كما عرفه الخليل بن أحمد الفراهيدى[٥]:"تنسيق الشيء وثغر رتل: حسن المتنضد ، ومرتل:مفلج ، ورتلت الكلام ترتيلا إذا أمهلت وأحسنت تأليفه ، وهو يرتل فى كلامه ويترسل إذا فصل بعضه عن بعض"[٦]. وفى الكشاف:"ترتيل القرآن أي قراءته على ترتل وتؤدة بتبين الحروف ، وإشباع الحركات ؛ حتى يجيء المتلو

---

[١] صيد الخاطر لشيخ العراق أبى الفرج عبد الرحمن بن الجو زى صـ ١٢٠ تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

[٢] البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ٤٤٩/١.

[٣] سورة المزمل ، الآية:٣.

[٤] معاني القران وإعرابه للزجاج ٢٤٠/٥.

[٥] الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم أبو عبد الرحمن البصري الفراهيدى الأزدى ، النحوي اللغوي ، الزاهد ، كان يمتنع عن قبول عطايا الملوك ، فكان قوته من بستان ورثه عن أبيه ، وكان يحج سنة ويغزو سنة إلى أن مات وله من المصنفات المشهورة منها كتاب العين ، وهو أول من اخترع العروض والقوافي ، ومات سنة ١٧٠ أو ١٧٥(البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي صـ ٩٩ حرف الخاء).

[٦] كتاب العين لأبى عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدى ١١٣/٨ حرف التاء ،باب التاء والراء واللام معهما ،دار الحرية للطباعة بغداد ١٤٠٤هـ ١٩٨٣ م ،دار الشئون الثقافية والنشر ١٩٨٤ م ،تحقيق د/ مهدى المخذومى ، د/ إبراهيم السامرائى.

فيه شبيها بالثغر المرتل ، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان[١] وأن لا يهذه هذا ولا يسرده سردا"[٢]. وقيل رتل من الرتل الذي هو الضعف واللين ، والمعنى : لين القراءة ولا تستعجل بالانكماش"[٣]"فبترتيل القرآن يتمكن الخاطر من التأمل فى حقائق الآيات ودقائقها ، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلالته ، وعند الوصول إلى الوعد و الوعيد يحصل الرجاء والخوف ، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله ، أما الإسراع فى القراءة فهو إنما يدل على عدم الوقوف على المعان ؛ لأن النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية ، ومن ابتهج بشيء أحب ذكره ، ومن أحب شيئا لم ير عليه سرعة ، فالترتيل إنما هو حضور القلب وكمال المعرفة"[٤].

قال الزركشى:" فحق على كل امرئ مسلم قرأ القرآن أن يرتله ؛ وكمال ترتيله تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه ، والإفصاح لجميعه بالتدبر حتى يصل لكل ما بعده ، وأن يسكت بين النفس والنفس حتى يرجع إليه نفسه ، وألا يدغم حرفا فى حرف ؛ لأن أقل مافى ذلك أن يسقط من حسناته بعضها ، وينبغي للناس أن يرغبوا فى تكثير حسناتهم ؛ فهذا الذي وصفت اقل ما يجب من الترتيل ، وقيل : أقل ترتيل أن يأتي بما يبين ما يقرأ به ، وإن كان مستعجلا فى قراءته ، وأكمله أن يتوقف فيها ، مالم يخرجه إلى التمديد والتمطيط ، فمن أراد أن يقرأ القرآن بكمال الترتيل فليقرأه على منازله ، فإن كان يقرأ تهديدا لفظ به لفظ المتهدد ، وإن كان يقرأ لفظ تعظيم لفظ به على التعظيم"[٥]. وجاء فى النشر اختلاف ؛ هل الأفضل الترتيل وقلة القراءة أم السرعة مع كثرة القراءة ؟ والصحيح هو أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها ؛ لأن المقصود من القرآن فهمه والتفقه فيه والعمل به ، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه ، وقد أحسن بعض أئمتنا-رحمه الله-حين قال " إن ثواب كثرة القراءة أكثر عددا ، فالأول كمن تصدق بجوهرة عظيمة أو أعتق عبدا قيمته نفيسة جدا ،والثاني كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم أو أعتق عددا من العبيد قيمتهم رخيصة"[٦].

ولنا فى رسول الله-ﷺ-أسوة حسنة ؛ فلقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وعلمه فكان خير معلم ، وها هو صلوات الله وتسليمه عليه يتعجل بتلاوة القرآن فى ابتداء نزوله عليه ؛ مخافة نسيانه ؛ وليحفظ العدد الكثير منه ، فينهاه ربه-ﷻ-عن السرعة فى القراءة ، ويأمره بالتأني والتمهل ؛ ويعلمه أن الطريق الأمثل

---

(١) الأقحوان نبت زهرة أصفر أو أبيض ، ورقه مؤلل كأسنان المنشار ، ومنه البابونج ، وكثر فى الأدب العربي تشبيه الأسنان بالأبيض المؤلل منه ، وجمعه أقاح وأقاحي (المعجم الوسيط ٢٢/١ ،باب الهمزة ،الطبعة الثانية ،قام بإخراج هذه الطبعة د / إبراهيم أنيس ، د / عبد الحليم منتصر ، د/ عطية الصوالى ، د/محمد خلف الله احمد .

(٢) الكشاف ٦٣٨/٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٦٥/٥ .

(٤) مفاتيح الغيب للرازي المجلد ١٥ ،١٥٣/٣٠ ،١٥٤ بتصرف.

(٥) البرهان فى علوم القرآن ٤٤٩/١ ،٤٥٠ .

(٦) النشر فى القراءات العشر ٢٠٨/١ ،٢٠٩ بتصرف ،دار الكتب العلمية بيروت ،لبنان ،أشرف على تصحيحه ومراجعته للمرة الأخيرة الأستاذ على محمد الضباع.

لحفظ هذا الكتاب الجليل هو أن يقرأه بتدبر مع الدعاء لله أن يزداد منه فقها وعلما وفهما ، قال تعالى فى سورة طه مخاطبا رسوله: " ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما"[١]أى سل الله زيادة فى العلم دون الاستعجال بتلاوة الوحي فإن ما أوحى إليك يبقى لا محالة"[٢].

روى أن النبي -ﷺ- كان يقول :"اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدنى علما والحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار"[٣].وإذا كان هذا هو دعاء النبي-ﷺ- وهو الذي بعثه الله فى الأميين ليعلمهم الكتاب والحكمة ، ويعلمهم مالا يعلمون " كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون"[٤] فكان-ﷺ-خير معلم ؛ إذا تكلم كان أبلغ البالغين ، وأفصح الفاصحين وأحكم الحاكمين -ﷺ-فالأولى والأحرى بنا أن نزداد فهما وتدبرا وعلما بهذا القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل ولا يعتريه شك ولا ريب تنزيل من حكيم حميد . روى عن ابن مسعود أنه كان يدعو "اللهم زدنى إيمانا ويقينا وفهما" ، أو قال: "وعلما"[٥].

ولقد صار النبي-عليه الصلاة والسلام-على المنهج الذي علمه الله إياه ، بتدبر القرآن ، فضرب لنا أعظم الأمثلة فى تدبره وتفهمه ، وسأذكر منها البعض على سبيل المثال لا الحصر ؛ لتكون لنا عونا ومثلا فى حفظ القرآن وتدبره .. منها: ما روى عن أحد الصحابة :" صليت مع النبي-ﷺ-ذات ليلة فافتتح البقرة ، فقلت : يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت : يصلى بها فى ركعة[٦]فمضى فقلت : يركع بها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، ثم افتتح النساء فقرأها ، يقرأ مترسلا ، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ ، ثم ركع فجعل يقول : " سبحان ربى العظيم " فكان ركوعه نحوا من قيامه ، ثم قال : " سمع الله لمن حمده " ثم قام طويلا قريبا مما ركع ، ثم سجد فقال " سبحان ربى الأعلى " فكان سجوده قريبا من قيامه"[٧].

---

[١] سورة طه ، الآية: ١١٤.

[٢] تفسير المراغى ١٥٥/١٦.

[٣] أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب الدعوات ،باب فى العفو والعافية ٥٧٨/٥ وقال الترمذي ، هذا حديث غريب من هذا الوجه والحديث عن أبى هريرة -ﷺ- وله شاهد فى مجمع الزوائد للهيثمى ١٨١/١٠ مختصرا ،كتاب الأدعية ،باب الأدعية المأثورة عن رسول الله -ﷺ- التي دعا بها وعلمها والحديث مروى عن أنس بن مالك.

[٤] سورة البقرة ،الآية: ١٥١.

[٥] أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ١٠٥/٩ رقم الحديث (٨٥٤٩) مكتبه العلوم والحكم ، الموصل ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣م ، الطبعة الثانية ،المحقق حمد بن عبد المجيد السلفى ، كما ذكره الهيثمى ،كتاب الأدعية ،باب أدعية الصحابة ١٨٥/١٠ وقال إسناده جيد.

[٦] معناه ظننت أنه يسلم بها فيقسمها على ركعتين ، وأراد بالركعة الصلاة بكمالها وهى ركعتان ولابد من هذا التأويل فينتظم الكلام بعده ، وعلى هذا فقوله " ثم مضى " معناه قرأ معظمها بحيث غلب على ظني أنه لايركع الركعة الأولى إلا فى آخر البقرة فحينئذ قلت يركع الركعة الأولى بها فجاوز وافتتح النساء(صحيح مسلم بشرح النووي ،كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تطويل القراءة فى صلاة الليل (٦١/٦)

[٧] أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة فى صلاة الليل ٥٣٦/١ ،٥٣٧ ،رقم الحديث (٧٧٢) عن حذيفة .

وروى عن عبد الله ، قال : قال لي النبي-ﷺ-أقرأ على ، قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ ! قال :"فإني أحب أن أسمعه من غيري " ففرأت عليه سورة النساء ، حتى بلغت " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا " قال : (أمسك) فإذا عيناه تذرفان[1]"[2].

قال الإمام القسطلانى فى شرح الحديث : "يحتمل أن يكون أحب أن يسمعه من غيره ؛ ليكون عرض القرآن سنة ؛ أو ليتدبره ويتفهمه ؛ وذلك أن المستمع أقوى على التدبر ؛ ونفسه أخلى وأنشط لذلك من القارىء ؛ لانشغاله بالقراءة وأحكامها وهذا بخلاف قراءته-ﷺ-على أبى بن كعب فإنه أراد أن يعلمه كيفية أداء القراءة ومخارج الحروف"[3]. وعن أنس أنه سئل عن قراءة النبي-ﷺ-فقال : كانت مدا ، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد ببسم الله ، ويمد بالرحمن ، ويمد بالرحيم"[4]. ولقد وضح لنا النبي-ﷺ-أن قارئ القرآن فى ترتل وتمهل يرتقى به فى الدرجات العلا يوم القيامة ، فقد روى أن النبي-ﷺ-:" قال: يقال:لصاحب القرآن[5] اقرأ وارتق[6]ورتل[7]كما كنت ترتل فى الدنيا[8] فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها"[9].

ولقد اقتدى الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون من بعدهم برسول الله-ﷺ-فى تدبره للقرآن ، فتدبروا آياته ، وفهموا معانيه ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، فقد "روى عن ابن مسعود أن رجلا قال

---

(1) بالذال المعجمة وكسر الراء (خبر المبتدأ) وهو عيناه (وإذا) للمفاجأة أى تطلقان دمعهما ، وبكاؤه ،عليه الصلاة والسلام، على المفرطين ، أو لعظم ما تضمنته الآية: من هول المطلع ، وشدة الأمر ، أو هو بكاء فرح لا بكاء جزع ، لأنه تعالى جعل أمته شهداء على سائر الأمم (إرشاد الساري بشرح صحيح البخارى للعلامة أبى العباسي شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ هـ) كتاب تفسير القرآن ٨٣/٧ ،دار صادر الطبعة السادسة بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٠٥هـ .

(2) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب التفسير باب (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) ١٣٩٤/٣ ،كما أخرجه مسلم فى صحيحه ،كتاب صلاة المسافرين وقصرها ،باب فضل استماع القرآن ، وطلب القراءة من حافظ للاستماع ، والبكاء عند القراءة والتدبر ، ٥٥١/١ ،بلفظ " قال لي رسول الله -ﷺ- " اقرأ على القرآن " قال ، فقلت ، يا رسول الله ! أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال ، " إني أشتهى أن أسمعه من غيري " ففرأت النساء حتى إذا بلغت " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا " رفعت رأسي أو غمزنى رجل إلى جنبى فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل ".

(3) إرشاد الساري ٨٣/٧ .

(4) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب فضائل القرآن باب (مد القراءة) ١٦٢٥/٤ رقم الحديث (٥٠٥٨).

(5) أى من يلازمه بالتلاوة والعمل (تحفة الأحوذى ٢٣٢/٨).

(6) أمر من رقى يرقى أى صعد إلى درجات الجنة ، يقال ، رقى الجبل وفيه وإليه رقيا أى صعد(تحفة الأحوذى ٢٣٢/٨).

(7) أى اقرأ بالترتيل ولا تستعجل بالقراءة (تحفة الأحوذى ٢٣٢/٨).

(8) من تجويد الحروف ومعرفة الوقوف (تحفة الأحوذى ٨/ ٢٣٢).

(9) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل فى القراءة ٧٣/٢ عن عبد الله بن عمرو، ط دار الفكر، كما أخرجه الترمذي فى سننه، كتاب فضائل القرآن باب (١٨) ١٧٧/٥ رقم الحديث (٢٩١٤) وقال أبو عيسى ، هذا حديث حسن صحيح ط دار الحديث القاهرة تحقيق إبراهيم عطوة.

له : إني لأقرأ المفصل فى ركعة ، فقال عبد الله :هذا[١]كهذ الشعر إن أقواما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع"[٢] قال النووي : "فى هذا الحديث النهى عن الهذ ، والحث على الترتيل والتدبر، وبه قال جمهور العلماء ، ومعناه : أن أقواما ليس حظهم من القرآن إلا مروره على اللسان لا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم ، وليس ذلك هو المطلوب بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه فى القلب"[٣].

وفى النهاية :" المعنى أن قراءتهم لا يرفعها الله ، ولا يقبلها ؛ فكأنها لم تتجاوز حلوقهم ، وقيل المعنى أنهم لا يعملون بالقرآن ولا يثابون على قراءته فلا يحصل لهم غير القراءة"[٤]وروى أيضا عن عبد الله بن مسعود أنه قال :" لا تهذوا القرآن هذ الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل[٥] وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة"[٦]، ويوضح لنا محمد بن كعب القرظى أن قراءة القليل من القرآن فى تدبر وتفكر خير من قراءة الكثير منه بدون فهم وتأمل ، فيقول:"لأن أقرأ فى ليلتي حتى أصبح بإذا زلزلت والقارعة ، لا أزيد عليهما ، وأتردد فيهما ، وأتفكر ، أحب إلى من أن أهذ القرآن ليلتي هذا ، أو قال انثره نثرا"[٧]. وغير ذلك من الأحاديث والآثار التي تدل كلها على وجوب التدبر فى كلمات الله ، وفهم معانيها ، للوصول إلى ما فيها من البراعة والبلاغة والفصاحة والتي لا يمكن إدراكها بمجرد القراءة السريعة ، ولقد ذكر الإمام الزركشى مقامات الناس فى تلاوة القرآن ، فقال :" الناس فى تلاوة القرآن ثلاثة مقامات :

الأول : من يشهد أوصاف المتكلم فى كلامه ومعرفة معاني خطابه ، فتنظر إليه من كلامه ، وتعلمه بخطابه ، وتمليه بمناجاته ، وتعرفه من صفاته ، فإن كل كلمة تنبئ عن معنى اسم ، أو وصف ، أو حكم ، أو إرادة ، أو فعل ؛ لأن الكلام ينبئ عن معان الأوصاف ، ويدل على الموصوف، وهذا مقام العارفين من المؤمنين ؛ لأنه لا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث أنه منعم عليه بل هو مقصور الفهم عن المتكلم ، موقوف الفكر عليه ، مستغرق بمشاهدة المتكلم.

---

[١] هو بتشديد الذال وهو شدة الإسراع والإفراط فى العجلة (صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٥/٦.

[٢] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القراءة واجتناب الهذ، وهو الإفراط فى السرعة وإباحة سورتين فأكثر فى ركعة ٥٦٣/١ رقم الحديث ٧٢٢ والحديث طويل اقتصرت فيه على محل الشاهد .

[٣] صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٥/٦.

[٤] النهاية فى غريب الحديث والأثر ١٨٧/١ باب التاء مع الراء.

[٥] الدقل ، ردىء التمر ويابسه وما ليس له اسم خاص فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع ويكون منثورا (النهاية فى غريب الحديث والأثر ١٢٧/٢ باب الدال مع القاف .

[٦] شعب الإيمان للبيهقى، باب فى تعظيم القرآن ، فصل فى إحضار القارئ قلبه ما يقرأه٣٦٠/٢ رقم الحديث (٢٠٤١) .

[٧] الزهد(لعبد الله بن المبارك بن واضح المر زوى أبو عبد الله المتوفى عام ١٨١) صـ ٩٧ ، باب الاعتبار والتفكر دار الكتب العلمية بيروت تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى .

الثاني: من يشهد بقلبه كأنه -تعالى- يخاطبه ويناجيه بألطافه ، ويتملقه بإنعامه وإحسانه ، فمقام هذا الحياء والتعظيم ، وحاله الإصغاء والفهم ، وهذا لعموم المقربين.

الثالث : من يرى أنه يناجى الله سبحانه ، فمقام هذا السؤال والتمكن ، وحاله الطلب ، وهذا مقام لخصوص أصحاب اليمين ، فإذا كان العبد يلقى السمع من بين يدي مسمعه ، مصغيا إلى سر كلامه ، شهيد القلب لمعاني صفاته ، ناظرا إلى قدرته ، تاركا لمعقوله ، ومعهود علمه، متبرئا من حوله وقدرته ، معظما للمتكلم ، متفرغا إلى الفهم ، بحال مستقيم ، وقلب سليم ، وصفاء يقين ، وقوة علم ، وتمكين سمع ، فصل الخطاب ، وشهد غيب الجواب ؛ لأن الترتيل فى القرآن ، والتدبر لمعاني الكلام ، وحسن الاقتصاد إلى المتكلم في الإفهام والإيقاف على المراد وصدق الرغبة فى الطلب ، سبب للإطلاع على المطلع من المسر المكنون المستودع ..... وبعد أن وضح هذه المقامات قال: فى القرآن ميادين وبساتين ، وعرائس ، وديباج ، ورياض ، فالميمات ميادين القرآن ، والراءات بساتين القرآن ، والحاءات مقاصير القرآن ، والمسبحات عرائس القرآن ، والحواميم ديباج القرآن ، والمفصل رياضة ، وما سوى ذلك ، فإذا دخل المريد فى الميادين ، وقطف من البساتين ، ودخل المقاصير، وشهد العرائس ، ولبس الديباج ، وتنزه فى الرياض ، وسكن غرفات المقامات ، اقتطعه عما سواه ، وأوقفه ما يراه ، وشغله بمشاهد له عما عداه ، ولذلك قال النبي -ﷺ-:"اعرفوا القرآن والتمسوا غرائبه ؛ وغرائبه فروضه وحدوده ، فإن القرآن على خمسة : حلال ، حرام ، ومحكم ، وأمثال ، ومتشابه ، فخذوا الحلال ودعوا الحرام ، واعملوا بالمحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال[1]"[2].

ولهذه الغرائب والحدود والفروض التي اشتملت عليها آيات القرآن نزل القرآن الكريم على رسول الله -ﷺ- منجما ، فلم ينزل جملة واحدة كالكتب السابقة ، ولقد ذكر العلماء لتنجيم نزول القرآن الكريم أسرارا عدة وحكما كثيرة منها:

الحكمة الأولي تثبيت فؤاد النبي -ﷺ- وتقوية قلبه : قال تعالى:"وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا"[3] وهذا التثبيت تمثل فى وجوه:

الوجه الأول: أن فى تجدد الوحي وتكرار نزول الملك به من جانب الحق إلى رسوله -ﷺ- سرور يملأ قلب الرسول ، وغبطة تشرح صدره ، وكلاهما يتجدد عليه بسبب ما يشعر به من هذه العناية الإلهية ، وتعهد مولاه فى كل نوبة من نوبات هذا النزول.

---

[1] الحديث أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان ٤٢٧/٢ بلفظ " أعربوا القرآن وأتبعوا غرائبه ....الحديث."، باب فى تعظيم القرآن فصل فى قراءة القرآن بالتفخيم والإعراب .

[2] البرهان فى علوم القرآن ٤٥٢/١ وما بعدها بتصرف.

[3] سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

الوجه الثاني : أن فى التنجيم تيسيرا عليه من الله فى حفظه وفهمه ومعرفه أحكامه وحكمه ، وذلك مطمئن له على وعى ما يوحى إليه حفظا وفهما وأحكاما وحكما ، كما أن فيه تقوية لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله.

الوجه الثالث: أن فى كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجم معجزة جديدة غالبا ، حيث تحداهم كل مره أن يأتوا بمثل نوبة من نوب التنزيل ، فظهر عجزهم عن المعارضة ، وضاقت عليم الأرض بما رحبت ، ولاشك أن المعجزة تشد أزره ، وترهف عزمه ، باعتبارها مؤيدة له ولحزبه، خاذلة لأعدائه ولخصمه.

الوجه الرابع : أن فى تأييد حقه ، ودحض باطل عدوه المرة بعد الأخرى تكرار للذة فوزه، وفلجه بالحق والصواب ، وشهوده لضحايا الباطل فى كل مهبط للوحي والكتاب ، وإن كل ذلك إلا مشجع للنفس ، مقو للقلب والفؤاد.

الوجه الخامس : تعهد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يهون عليه هزة الشدائد، ولا ريب أن تلك الشدائد كانت تحدث فى أوقات متعددة ، فلا جرم كانت التسلية تحدث هي الأخرى فى مرات متكافئة، وكلما أحرجه خصمه سلاه ربه.

الحكمة الثانية من نزول القرآن منجما: التدرج فى تربية هذة الأمه الناشئة علما وعملا ، وينضوي تحت هذا الإجمال أمور خمسة :أولها : تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية ، وهى كما علمت كانت أمة أمية وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم ، وكانت مشتغلة بمصالحها المعاشية ، وبالدفاع عن دينها الجديد بالحديد والدم ، فلو نزل القرآن جملة واحدة ؛ لعجزوا عن حفظه ، فاقتضت الحكمة العليا أن ينزله الله إليهم مفرقا ؛ ليسهل عليهم حفظه ؛ ويتهيأ لهم استظهاره ، ثانيها : تسهيل فهمه عليهم كذلك ، مثل ما سبق فى توجيه التيسير فى حفظه ، ثالثها : التمهيد لكمال تخليهم عن عقائدهم الباطلة ، وعبادتهم الفاسدة، وعاداتهم المرذولة ؛ فكلما نجح الإسلام معهم فى هدم الباطل ، انتقل بهم إلى هدم آخر ، وهكذا يبدأ بالأهم ثم المهم ؛ حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها فطهرهم منها ، وهم لا يشعرون بعنت ولا حرج ، رابعها : التمهيد لكمال تحليهم بالعقائد الحقة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة ، فبدأ بفطامهم عن الشرك والإباحة ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء ، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات ، فبدأهم بالصلاة قبل الهجرة ، وثنى بالزكاة ، وبالصوم فى السنة الثانية من الهجرة ، وختم بالحج فى السنة السادسة منها ، وكذلك كان الشأن فى العادات ، زجرهم عن الكبائر ، وشدد النكير عليهم فيها ، ثم نهاهم عن الصغائر فى شيء من الرفق ، وتدرج بهم فى تحريم ما كان مستأصلا فيهم كالخمر.. تدرجا حكيما حقق الغاية ، وأنقذهم من كابوسها فى النهاية ، خامسها : تثبيت قلوب المؤمنين ، وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين بسبب ماكان يقصه القرآن الحين بعد الحين من قصص الأنبياء والمرسلين ، وما كان لهم

ولأتباعهم من الأعداء والمخالفين ، وما وعد الله به عباده الصالحين من النصرة والأجر والتأييد والتمكين ، وهذه الحكمة مشار إليها فى قوله تعالى:"وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا"[١] أى لتقرؤه على الناس فى تمهل وتريث ، وتؤدة لا على الفور ، والسرعة والعجلة ، قال الراغب : "المكث : ثبات مع انتظار ، ويقال مكث مكثا"[٢] وقال الإمام الرازي " إنما فرقه ؛ ليكون حفظه أسهل ؛ ولتكون الإحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أسهل"[٣] وقال القرطبى:"أنزلناه نجما بعد نجم ؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا"[٤]

الحكمة الثالثة من حكم التنزيل المنجم : مسايره الحوادث والطوارئ فى تجددها وتفرقها فكلما جد منهم جديد ، ينزل من القرآن ما يناسبه ، وفصل الله لهم من أحكامه ما يوافقه ، وتنتظم هذه الحكمة أمورا أربعة ، **أولها** : إجابة السائلين عن أسئلتهم عندما يوجهونها إلى الرسول-ﷺ-سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التثبيت من رسالته كما قال الله تعالى فى جواب سؤال أعدائه إياه:"ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا "[٥] أم كانت لغرض التنور ، ومعرفة حكم الله ، كقوله تعالى فى سورة البقرة: " ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو"[٦] ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت ترفع إلى النبي فى أوقات مختلفة ، **ثانيها** : مجاراة الأقضية والوقائع فى حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها ، ومعلوم أن تلك الأقضية والوقائع لم تقع جملة ، بل وقعت تفصيلا وتدريجا ، والأمثلة على هذا كثيرة منها قوله-سبحانه-فى سورة النور:" إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم " إلى قوله سبحانه " أولئك مبرؤون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم"[٧] وهن آيات نزلن فى حادث من أروع الحوادث وهو اتهام السيدة الجليلة أم المؤمنين عائشة-رضي الله عنها-بالإفك ، **ثالثها** : لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها ، وإرشادهم إلى شاكلة الصواب فى الوقت نفسه ، ولا ريب أن تلك الأغلاط كانت فى أزمان متفرقة، اقرأ إن شئت قوله سبحانه فى سورة (آل عمران):"وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال"[٨]إلى آيات كثيرة بعدها ، وكلها نزلت فى غزوة أحد ، إرشادا للمؤمنين إلى مواضع أخطائهم فى هذا الموقف الرهيب ، والمأزق العصيب ، **رابعها** : كشف حال أعداء الله المنافقين ، وهتك أستارهم وسرائرهم للنبي والمسلمين ؛ كي ما يأخذوا منهم حذرهم فيأمنوا شرهم ؛ وحتى يتوب من شاء منهم ، اقرأ إن شئت قوله تعالى من سورة البقرة:"ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما

---

[١] سورة الإسراء ، الآية:١٠٦.

[٢] المفردات فى غريب القرآن ،ص٤٧١ ، كتاب الميم.

[٣]مفاتيح الغيب للرازي المجلد الحادي عشر ٥٧/٢١.

[٤]الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد الخامس ٢٢٠/١٠.

[٥] سورة الإسراء ، الآية: ٨٥.

[٦]سورة البقرة ، من الآية: ٢١٩.

[٧] سورة النور، الآيات: ١١ : ٢٦.

[٨] سورة آل عمران ، من الآية: ١٢١.

هم بمؤمنين "إلى قوله" إن الله على كل شيء قدير"[1] كما فضحتهم سورة التوبة فى كثير من الآيات ، وكما كشف القرآن أستارهم فى كثير من المناسبات .

الحكمة الرابعة الإرشاد إلى مصدر القرآن: وأنه كلام الله وحده ، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد-ﷺ-ولا كلام مخلوق سواه ، وبيان ذلك أن القرآن تقرأه من أوله إلى آخره ، فإذا هو محكم السرد ، دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قوى الاتصال ، آخذ بعضه برقاب بعض فى سوره وآياته وجمله ، يجرى دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة ، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ، ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة ! أو كأنه سمط وحيد ، وعقد فريد ، يأخذ بالأبصار ، نظمت حروفه وكلماته ، ونسقت جمله آياته ، وجاء آخره مساوقا لأوله ، وبدا أوله مواتيا لآخره!![2]. هذه هي أهم أسرار تنجيم القرآن الكريم وغيرها الكثير والكثير ؛ قد لا يسعنا المقام لذكرها ، فالحديث عنها يحتاج إلى مجلدات ... لكن ما يهمنا فى هذا المقام أن نعلم أن القرآن الكريم إنما نزل منجما ولم ينزل جملة واحدة ليرشدنا الله إلى أن ما فيه من الإعجاز لا يدرك إلا بالتمهل فى تلاوته والتدبر فى معانيه.

وفى ختام هذا المبحث ؛ يجب أن نعلم أن من الواجب على كل مؤمن ومؤمنة تدبر القرآن واستنباط أحكامه ؛ حتى لا يفوتنا الخير العظيم ، والثواب الجليل فى الدنيا والآخرة .

ثالثا: التأني والتبين عند تلقى الأخبار:

ومن أهم تلك الأمور التى يجب فيها التأني: التأني عند تلقى الأخبار ؛ فإذا جاءنا رجل عرف بالصلاح نقبل خبره ما لم يكن الخبر مستغربا ، فإذا كان مستغربا وانفرد به عن الناس ، أو كان الخبر يعارض ثوابت مدعمة بالأدلة ، أو كان الرجل بينه وبين قوم عداوة ونقل عنهم خبرا ، أو كان معروفا بالتسرع فى تلقى الأخبار ونشرها وغير ذلك من تلك الأمور فيجب علينا عندئذ التبين والتثبيت من الخبر ، ولقد أمرنا الله-ﷻ-بالتبين من خبر الفاسق فقال الله تعالى:"يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"[3].

وسبب نزول هذه الآية ما روى عن الحارث بن ضرار الخزاعى قال: قدمت على رسول الله-ﷺ-فدعاني إلى الإسلام ، فأقررت به ، ودخلت فيه ؛ ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت يا رسول الله :أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي جمعت زكاته ، فيرسل إلى رسول الله-ﷺ-رسولا لإبان كذا وكذا ، ليأتيك ما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن

---

[1] سورة البقرة ، الآيات: ٨ : ٢٠.

[2] بنظر لهذه الحكم فى مناهل العرفان فى علوم القرآن ٥٣/١ : ٦٠ ، ومفاتيح الغيب المجلد الثانى عشر ٢٤/ ٢٦٩ وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٦٧/٨ ، والتفسير المنير ٥٩/١٩.

[3] سورة الحجرات، الآية: ٦.

استجاب له ، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله-ﷺ-أن يبعث إليه ، احتبس الرسول فلم يأته ، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله-ﷻ-ورسوله-ﷺ-فدعا مسروات قومه فقال لهم : إن رسول الله-ﷺ-كان وقت وقتا يرسل إلى رسوله يقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله-ﷺ-الخلف ، ولا أدرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت ، فانطلقوا فنأتي رسول الله-ﷺ- وبعث رسول الله-ﷺ-الوليد بن عقبة[1] ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق ، فرجع فأتى رسول الله-ﷺ-فقال :إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلى، فضرب رسول الله-ﷺ-البعث إلى الحارث ، وأقبل الحارث بأصحابه إذا استقبل البعث ، وفصل من المدينة فلقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم : أين بعثتم؟ قالوا : إليك، قال ولم؟ قالوا : إن رسول الله-ﷺ-كان قد بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله ، قال : لا ! والذي بعث محمدا بالحق ما رأيته البتة ولا أتاني ، فلما دخل الحارث على رسول الله-ﷺ-قال : "منعت الزكاة وأردت قتل رسولي" ، قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته البتة ولا أتاني وما احتبست إلا حين احتبس على رسول الله-ﷺ-حسبت أن يكون كانت سخطة من الله-ﷻ-ورسوله ، قال: فنزلت الحجرات (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)إلى قوله(فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم[2]"[3].

وقد علق الإمام الرازي على هذة الرواية قائلا :"وهذا جيد إن قالوا بأن الآية نزلت فى ذلك الوقت ، وأما إن قالو بأنها نزلت لذلك مقتصرا عليه ، ومتعديا إلى غيره فلا ، بل نقول هو نزل عام لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق ، ويدل على ضعف قول من يقول إنها نزلت لكذا ، أن الله تعالى لم يقل إني أنزلتها لكذا ، والنبي-ﷺ-لم ينقل عنه أنه بين أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب ،غاية ما فى الباب أنها نزلت فى ذلك الوقت ، وهو مثل التاريخ لنزول الآية ، ونحن نصدق ذلك"[4].

ومراد الإمام الرازى أن الآية لم تنزل لهذا السبب ، بل هى عامة ، نزلت دعوة للتثبت من خبر الفاسق وليست مختصة بهذه الواقعة ، يقول د/ عبد الكريم الخطيب:" وأيا كان سبب النزول ، فإن الآية عامه مطلقة ، تحذر المسلمين من الأنباء الكاذبة التي يرجف بها المرجفون ليشيعوا فى المسلمين قالة

---

(1) الوليد بن عقبه بن أبى معيط بن آبى عمرو زكوان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي أخو عثمان بن عفان لأمه يكنى أبا وهب ، قتل أبوه بعد الفراغ من غزوة بدر، وكان شديدا على المسلمين كثير الأذى لرسول الله-ﷺ- أسلم الوليد وأخوه عماره يوم الفتح ، وكان الوليد شجاعا شاعرا جواد ، روى عن النبى وعن عثمان وغيره ، وروى عنه حارثة بن مضرب ، والشعبي، وأبو موسى الهمدانى وغيرهم ، ومات فى خلافه معاوية(الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٦١٤/٦ وما بعدها. وانظر الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ٤٧٦/٧طـ دار صادر بيروت.

(2) سورة الحجرات ، الآيات: ٦: ٨.

(3) أخرجه الطبراني فى المعجم الكبير ٢٧٤/٣ ، كما أخرجه احمد فى مسنده ٢٧٩/٤ ، ورجاله ثقات كما قال الهيثمى فى مجمعه١٠٩/٧، وينظر أسباب النزول للواحدى صـ٢٧٧، دار مكتبه الهلال ،بيروت.

(4) مفاتيح الغيب-للرازي المجلد الرابع عشر ١٠٣/٢٨.

السوء ؛ وليوغروا بها صدورهم على أهل الإيمان، والسلامة فيهم ، وأن هذا من شأنه لو وقع موقع القبول والتسليم من المؤمنين من غير تبصر أو تمحيص ؛ لأفسد عليهم أمرهم ؛ ولنزع الثقة والطمأنينة من بينهم .. فما أكثر ما كان يلقى به المنافقون واليهود فى محيط المسلمين من أكاذيب وأراجيف وشائعات ، الأمر الذي يقضى على المسلمين بأن يمحصوا هذه الأخبار ، وألا يأخذوها مأخذ القبول والتسليم دون نظر فاحص لها"[١]. والخطاب فى هذه الآية شامل النبي-ﷺ-والمؤمنين من أمته الكاملين منهم محاسن آداب وغيرهم[٢].

وفى هذة الآية نكته لطيفة هي "التعبير بحرف الشرط الذي لا يذكر إلا مع التوقع فى قوله :"إن جاءكم" وذلك لبيان أن المؤمن موصوف بأنه شديد على الكافر غليظ عليه ؛ فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره بنبأ ، فإن تمكن منه يكون نادرا"[٣]. قال الله تعالى: "محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم.....الآية"[٤].والفسق :" بمعنى الخروج يقال : فسق فلان خرج عن حجر الشرع ، وذلك من قوله فسق الرطب إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر، والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير ، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقر به، ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضه ، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق ؛ فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة"[٥].

ويستخلص من هذا التعريف اللغوي أن الفاسق هو: الخارج عن حدود ما التزمه الشرع ، قال القشيري-رحمه الله-:" الفاسق هو الخارج عن الطاعة ، ويقال هو الخارج عن حد المروءة ، ويقال هو الذي ألقى جلباب الحياء"[٦].

ولا ضير فإن الفاسق يشمل كل هذه الصفات المذمومة ؛ فهو الخارج عن طاعة الله ، وخارج عن المروءة والنخوة ، وهو من ألقى لباس الأدب والحياء ، وهذا كله خروج عن حدود الشرع والدين. وأما النبأ فهو : "خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن ، ولا يقال للخبر فى الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثه"[٧]. وتنكير " فاسق ونبأ " ووقوعهما فى سياق الشرط ؛ يفيد العموم فى الفساق

---

[١] التفسير القرآني للقرآن المجلد السابع ٢٦/٤٤٠،٤٤١ دار الفكر العربي.

[٢] روح المعاني ٢٦/١٤٥.

[٣] مفاتيح الغيب المجلد السابع عشر ٢٨/.١٠٣.بتصرف.

[٤] سورة الفتح ، من الآية: ٢٩.

[٥] مجمع البيان الحديث ، تفسير مفردات ألفاظ القرآن ، سميح عاطف الزين ، صـ٦٦٢، دار الكتاب اللبناني بيروت ،لبنان.

[٦] لطائف الإشارات ٣/٤٣٩.

[٧] مفردات ألفاظ القرآن ،سميح عاطف الزين ،صـ٨٢٩.

بأي فسق اتصفوا ، وفى الأنباء كيف كانت ، كأنه قيل أى فاسق جاءكم بأي نبأ فتوقفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر وانكشافه"[١].

وقد يتساءل سائل إذا كانت هذه الآية عامة فى الدعوة إلى التبين في الخبر فلماذا خص الفاسق بالذكر؟ والجواب: لأنه مظنة الكذب ، و هذا ما يوضحه الشيخ سيد قطب قائلا :" تخصيص الفاسق ؛ لأنه مظنة الكذب ؛ وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة فى كل ما ينقله أفرادها من أنباء ؛ فيقع ما يشبه الشلل فى معلوماتها ، فالأصل فى الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها ،وأن تكون أنباؤها مصدقة مأخوذة بها ، فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره ، وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء ، ولا تعجل الجماعة فى تصرف بناء على خبر فاسق ، فتصيب قوما بظلم عن جهالة وتسرع ، فتندم على ارتكابها ما يغضب الله ، ويجانب الحق والعدل فى اندفاع"[٢].

فالواجب واللائق بحال الجماعة المسلمة التأني والتبين من الأخبار عند تلقيها وهو ما أمر الله به فى قوله " فتبينوا " فلقد دعي المولى-ﷻ-إلى التبين والصبر وعدم الاستعجال عند تلقى الخبر، خاصة إذا كان فى أمر هام وخطير كما فى هذه الواقعة ، فلولا تثبت النبي وتأنيه بإرسال واحد منهم ؛ لكي يتأكد من صحة الخبر ، لوقعت الحروب ، وشنت الفتن ، ولأصابوا قوما بظلم ، وبغير وجه حق ، وهو ما أشار إليه بقوله : أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، فالعجلة دائما ما يعقبها الندم والحسرة " فقوله تعالى: أن تصيبوا تعليل للأمر بالتبين ، أى فتبينوا كراهة أن تصيبوا ، أو لئلا تصيبوا ، ومعنى قوله تعالى " بجهالة " أى ملتبسين بجهالة لحالهم"[٣]. "فالجهالة هنا ليست من الجهل المناقض للعلم ، لكنها من الجهل المقابل للحلم والاتزان والموضوعية، الجهالة هنا هى الخفة والطيش الناتجة عن العجلة والتسرع والاندفاع والعاطفية والسير وراء الخبر الكاذب الذى قدمه ذلك الفاسق[٤] فلو أن الجيش الإسلامى اشتبك مع الذين قيل فيهم ذلك ، ثم ظهر لهم براءتهم لأصبحوا نادمين على ما فعلوا فى حقهم ، ومعنى" نادمين "مغتمين غما لازما متمنين أنه لم يقع ، فإن الندم الغم على وقوع شيء مع تمنى عدم وقوعه"[٥]. قال الجرجانى :الندم هو:"غم يصيب الإنسان ويتمنى أن ما وقع منه لم يقع"[٦].

---

[١] التحرير والتنوير ٢٣١/٢٥.

[٢] فى ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ٣٣٤١/٢٦.

[٣] روح المعاني ١٤٧/٢٦.

[٤] التفسير الموضوعى بين النظرية والتطبيق ، د/صلاح عبد الفتاح الخالدى ، صـ ١٤٥، طـ الأولى ١٤٨هـ ، ١٩٩٧م ، دار النفائس.

[٥] روح المعاني ١٤٧/٢٦.

[٦]التعريفات للجرجاني صـ٣٠٨ باب النون ، دار الكتاب العربي

يقول د/عبد الكريم الخطيب موضحا ما يعقب الاستعجال من الندم خاصة عند تلقى خبر من فاسق: "الأخذ بالنبأ الوارد من فاسق قبل التثبت منه يعود على المسلمين بالحسرة والندم ؛ لأنهم وضعوا الأمر فى غير موضعه ، ورتبوا على هذا القول الكاذب أمورا لا يمكن إصلاحها بعد أن وقع عليها ما وقع"[١] ويبدوا أن بعض المسلمين فى هذا الواقعة اندفعوا وأرادوا الحرب وأشاروا على رسول الله -ﷺ- بذلك ، إلا أن النبي من شأنه ودأبه التأنى فى جميع أموره ، فلولاه لشنت الحروب ؛ ولهذا قال المولى:"واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم[٢]" [٣].

وهذا يوضح لنا أن أقرب الطرق للتأني والتثبت هو الرجوع إلى سنة رسول الله -ﷺ-ومنهاجه فهو المبين المرشد المنبئ عن المولى -ﷻ-وهو أعلم الناس بمصالح أمته وأشفق عليهم من أنفسهم ، قال تعالى:"النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم "[٤] فعلى المؤمنين الرجوع إليه قبل الاندفاع فى الأمور لاسيما وقد كان -ﷺ-متأنيا متريثا ، فلقد ضرب لنا أعظم الأمثلة فى التأنى والتريث عند تلقيه أى خبر ، فها هو رسول الله -ﷺ-يسأل حاطب بن أبى بلتعة[٥] عندما صدر منه ما صدر من إرسال رسالة إلى المشركين يخبرهم فيها بأمر رسول الله-ﷺ-فيقول له رسول الله :"يا حاطب ما حملك على ما صنعت ؟"[٦] فهذا

---

[١] التفسير القرآني للقرآن،المجلد السابع ٤٤١/٢٦.

[٢] سورة الحجرات ، من الآية: ٧.

[٣]العنت ، المشقة والشدة . (المغرب فى ترتيب المعرب) لأبي الفتح ناصر الدين بن عبد السيد على بن المطرز ٨٤/٢ باب العين ، مكتبه أسامه بن زيد ، حلب ١٩٧٩ ط الأولى تحقيق محمود فاخورى ، وعبد الحميد مختار.

[٤] سورة الأحزاب ، من الآية: ٦.

[٥]حاطب بن أبى بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن مصعب ، حليف بنى أسد بن عبد العزى ، اتفقوا على شهوده بدرا ، وفيه أنزل قوله -تعالى،،يأيها الدين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء.....الآيات ، مات سنة ثلاثين فى خلافة عثمان وله خمس وستون سنة(ينظر الإصابة ٤/٢ وما بعدها).

[٦] والحديث كما ذكره البخارى -ﷺ- عن علي ،ﷺ، قال: بعثني رسول الله-ﷺ- والزبير وأبى مرثد وكلنا فارس قال:"انطلقوا حتى تأتوا روضة حاج قال أبو سلمة:هكذا قال أبو عوانة (حاج) فإن فيها ا مرأة معها صحيفة من حاطب ابن أبى بلتعة إلى المشركين فأتوني بها " فانطلقنا على أفراسنا حتى أدركناها حيث قال لنا رسول الله -ﷺ- تسير على بعير لها وكان قد كتب إلى أهل مكة بمسير رسول الله -ﷺ-إليهم، فقلنا: أين الكتاب الذي معك ؟ قالت : ما معي كتاب! فأنخنا بها بعيرها ، فابتغينا فى رحلها فما وجدنا شيئا ، فقال لي صاحباى : ما نرى معها كتابا ؟ قال : فقلت : لقد علمنا ما كذب رسول الله -ﷺ- ثم حلف على، والذى يحلف به لتخرجن الكتاب أو لأجردنك، فأهوت إلى حجز لها وهى محتجزة بكساء فأخرجت الصحيفة فأتوا بها رسول الله -ﷺ- فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، دعنى فأضرب عنقه فقال رسول الله :" يا حاطب ما حملك على ما صنعت" ؟ قال: يا رسول الله مالي أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله ؟ ولكني أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع بها عن أهلي ومالي ، وليس من أصحابك أحد إلا وله هنالك من قومه من يدفع الله به عن أهله وماله، قال: "صدق ولا تقولوا له إلا خيرا" قال: فعاد عمر، فقال: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين دعنى فلأضرب عنقه، قال:" أوليس من أهل بدر وما يدريك لعل الله اطلع عليهم فقال اعملوا ما شئتم فقد أوجبت لكم الجنة" فأغر ورقت عيناه فقال: الله ورسوله اعلم(أخرجه البخارى في صحيحه واللفظ له ، كتاب

السؤال ينبغى أن يكون شعارا بين المؤمنين إذا فعل بعضهم لبعض شيئا مشينا ، فبدلا من أن يعامله بالعقوبة ، يسأله ما حملك على فعل هذا ، إقتداء برسولنا-ﷺ-وهاهو أيضا رسول الله-ﷺ-عندما صلى الظهر ركعتين وقام إليه رجل يقول : يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ فما كان من النبي-ﷺ-أن يقبل قوله دون تبين وتثبت ، بل سأل أصحابه هل ما يقوله صدق أم لا ؟ فعن أبى هريرة-رضي الله عنه-قال: صلى بنا رسول الله-ﷺ- إحدى صلاتي العشى[1] إما الظهر وإما العصر ، فسلم فى ركعتين ثم أخذ جذعا[2] فى قبلة المسجد فاستند إليها مغضبا، وفى القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يتكلما ، وخرج سرعان[3]الناس : قصرت الصلاة ، فقام ذو اليدين[4]فقال : يا رسول أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ فنظر النبي-ﷺ-يمينا وشمالا فقال :"ما يقول ذو اليدين "؟ قالوا : صدق لم تصل إلا ركعتين ، فصلى ركعتين ثم كبر ، ثم سجد ، ثم كبر، فرفع، ثم كبر وسجد، ثم كبرورفع ، قال : وأخبرت عن عمران بن حصين أنه قال : وسلم"[5].

قال الإمام النووي-رحمه الله-:"إذا ادعى الواحد شيئا جرى بحضرة جمع كثير لا يخفى عليهم ، سئلوا عنه ولا يعمل بقوله من غير سؤال"[6].

وكثير وكثير فى هذا الباب من الأحاديث التي تحث على وجوب التبين فى نقل الأخبار،، فيجب على المؤمن التثبت من الأخبار التي تصله ، لاسيما وإن كانت هذه الأخبار عن إخوانه من أهل التقوى والصلاح ، فالشائعات تنتشر أكثر عن أهل الإيمان والصلاح وهى شائعات لا أصل لها ، ولا أساس ، لكنها قد تجد من يروجها وقد يكون لها أضرارا عظيمة، فيجب على الإنسان توخى الحذر والحيطة عند

استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب ما جاء فى المتأولين ٢١٦٦/٥، ٢١٦٧، كما أخرجه مسلم فى صحيحه بمعناه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر ، وقصة حاطب بن أبى بلتعة ١٩٤١/٤، رقم الحديث(٢٤٩٤).

[1] بفتح العين وكسر الشين وتشديد الياء . قال الأزهري :العشى عند العرب مابين زوال الشمس وغروبها . (صحيح مسلم بشرح النووي ٦٨/٥).

[2]مذكر ولكنه أنثه على إرادة الخشبة (صحيح مسلم بشرح النووي ٦٨/٥).

[3] السرعان ، بفتح السين والراء هذا هو الصواب الذي قاله الجمهور من أهل الحديث واللغة وهكذا ضبطه المتقنون والمعنى ، المسرعون إلى الخروج (صحيح مسلم بشرح النووي ٦٨/٥.بتصرف).

[4] وفى رواية رجل من بنى سليم ، وفى رواية رجل يقال له الخرباق وكان فى يده طول، وفى رواية رجل بسيط اليدين ، وهذا كله رجل واحد اسمه الخرباق بن عمرو بكسر الخاء والباء الموحد وآخره قاف ، ولقبه ذو اليدين لطول كان فى يديه وهو معنى بسيط اليدين (صحيح مسلم بشرح النووي ٦٨/٥،٦٩).

[5] أخرجه البخاري فى صحيحه، كتاب السهو ،باب (إذا سلم فى ركعتين أو فى ثلاث فسجد سجد تين مثل سجود الصلاة أو أطول ٣٦٦/١ مختصرا، وفيه أن الرسول قال لأصحابه " أحق ما يقول ؟ " كما أخرجه فى نفس الكتاب ،باب " من لم يتشهد فى سجدتى السهو " نفس الجزء والصفحة " مختصرا " وذكر فيه " أصدق ذو اليدين" كما أخرجه فى نفس الكتاب باب " من يكبر فى سجدتى السهو " ٣٦٦/١،٣٦٧ " بلفظ قريب " وفيه أن النبي ،ﷺ، قال ، " لم أنس ولم تقصر" كما أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب المساجد ومواضيع الصلاة ،باب فى السهو فى الصلاة والسجود له، ٤٠٣/١ بلفظه ،رقم الحديث (٥٧٣) كما أخرجه فى نفس الكتاب والباب والجزء ص ٤٠٤ بلفظ أصدق ذو اليدين؟.

[6] صحيح مسلم بشرح النووي ٧١/٥ بتصرف .

تلقيها ، ولكن يجب التنبيه على أمر هام وهو أن الإنسان ليس معصوما من الخطأ والوقوع فى الزلل ، فكل ابن آدم خطاء وخيرهم التوابون العائدون إلى الله ، فها هم خير أمة أخرجت للناس ، خير القرون وأحسنهم على الإطلاق أصحاب رسول الله-ﷺ-الذين أقاموا دعائم الدين ، ونشروا الإسلام ، ودافعوا عن رسول الله ، وأوذوا فى سبيله ، قد نفشت بينهم مقوله خبيثة ، وفرية عظيمة ، ألا وهى قذف أم المؤمنين عائشة-رضي الله عنها-الطيبة الطاهرة العفيفة بنت أبى بكر الصديق-رضي الله عنه-ورميها بأحد الصحابة ، وكان الذي تولى إشاعة هذه الفرية رأس النفاق عبد الله بن أبى سلول ، وتلقاها عنه بدون تبين صحابة ، كان لهم فضل كبير ، ولهم سوابق خير في الدفاع عن رسول الله-ﷺ-وعن الإسلام كمسطح بن أثاثة[1] ، الذي شهد بدرا مع رسول الله-ﷺ-[2] وحسان بن ثابت[3] الذي كان ينافح ويدافع عن الرسول-ﷺ-بشعره !! وحمنة بنت جحش[4] أخت زينب بنت جحش رضي الله عنها !! فهؤلاء قد أذاعوا الخبر المنقول بدون تبين ، ولو أنهم تبينوا من صحته لما وقع لهم اللوم والعتاب من الله ، وما قذفوا امرأة من خيرة نساء المؤمنين ، إلا أن هؤلاء قد اعترفوا بخطئهم وندموا وتابوا فتاب الله عليهم ، وفيهم نزل قوله تعالي:

" **إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم {} لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين {} لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون {} ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم {} إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم {} ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم {} يعظكم الله أن تعودوا**

---

[1] مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي كان اسمه عوف وأما مسطح فهو لقبه ، كان أبو بكر يمونه لقرابته منه ، فلما خاض مع أهل الإفك في أمر عائشة حلف أبو بكر ألا ينفعه فنزلت "ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربي" (سورة النور ، من الآية ٢٢" ، فعاد أبو بكر إلي الإنفاق عليه ، مات مسطح سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان ويقال : عاش إلي خلافة علي وشهد معه صفين ومات في تلك السنة سبع وثلاثين. (الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ، ٩٣/٦ ، وانظر المعارف لابن قتيبة ، صـ ٣٢٨ ، دار المعارف القاهرة ، تحقيق د.ثروت عكاشة).

[2] انظر المعارف ، لابن قتيبة ، صـ ٣٢٨.

[3] حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو شاعر رسول الله -ﷺ- يكنى أبا الوليد روي عن النبي -ﷺ- الأحاديث وروي عنه سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبدالرحمن وآخرون ، كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي -ﷺ- أيام النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام مات حسان سنة أربعين وقيل خمسين وقيل أربع وخمسين وهو ابن عشرين ومائة سنة ، (الإصابة ، ٦٢/٢ وما بعدها ، وانظر ترجمته في تاريخ دمشق ٣٧٨/١٢ وما بعدها، والوافي بالوفيات للصفدي ، ٢٧٠/١١ وما بعدها.

[4] حمنة بنت جحش الأسدية أخت أم المؤمنين زينب ، كانت زوج مصعب بن عمير فقتل عنها يوم أحد فتزوجها طلحة بن عبيد الله ، وكانت من المبايعات شهدت أحدا وكانت تسقي العطشي وتحمل الجرحي وتداويهم (الإصابة ٥٨٦/٧) قال ابن سعد : أطعمها رسول الله في خيبر ثلاثين وسقا. (الطبقات الكبري لابن سعد ٢٤١/٨).

لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين {} ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم {} إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون {} ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم"[1]

هذا ! وقد يكون للخبر الشائع أصل صحيح ، ولكن ناقله يتوسع فيه ويزيد فيه ما ليس منه ، ولو رده إلي أصله لتبين الصحيح منه من السقيم ، ومن ذلك قصة اعتزال النبي-ﷺ-أزواجه شهرا ، فتحدث الناس في ذلك ، وزادوا فيه ما ليس منه ، وهو أن النبي-ﷺ-طلق أزواجه ، إلا أن عمر بن الخطاب تبين الأمر وعرف صحته من النبي-ﷺ- فلقد روي عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله-ﷺ-نساءه ، قال : دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون[2] بالحصي ويقولون : طلق رسول الله-ﷺ-نساءه ، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب ، فقال عمر : فقلت لأعلمن ذلك اليوم ، قال : فدخلت علي عائشة بنت أبي بكر ، فقلت يا بنت أبي بكر ، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله-ﷺ-؟ فقالت : مالي ومالك يا بن الخطاب؟ عليك بعيبتك[3] ، قال : فدخلت علي حفصة بنت عمر ، فقلت لها: يا حفصة : أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله-ﷺ-؟ والله لقد علمت أن رسول الله-ﷺ- لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك رسول الله-ﷺ- فبكت أشد البكاء ، فقلت لها : أين رسول الله--ﷺ؟ قالت : هو في خزانته[4] في المشربة فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله-ﷺ-قاعدا علي أسكفة[5] مدل رجليه علي نقير[6] من خشب وهو جذع يرقي عليه رسول الله-ﷺ- وينحدر، فناديت يا رباح! استأذن لي عندك علي رسول الله-ﷺ-فنظر رباح إلي الغرفة ، ثم نظر إلي فلم يقل شيئا ، ثم رفعت صوتي ، فقلت : يا رباح استأذن لي عندك علي رسول الله-ﷺ-فإني أظن أن رسول الله-ﷺ-ظن أني جئت من أجل حفصة ، والله لئن أمرني رسول الله بضرب عنقها لأضربن عنقها ورفعت صوتي فأومأ إلي أن أرقه ، فدخلت علي رسول الله-ﷺ-وهو مضطجع علي حصير ، فجلست فأدني عليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله-ﷺ-فإذا

---

[1] سورة النور ، الآيات من ١١: ٢٠.

[2] بتاء مثناه بعد الكاف أي يضربون الأرض كفعل المهموم المفكر ، صحيح مسلم بشرح النووي ، ٨٢/١٠ ، المطبعة المصرية ومكتباتها.

[3] المراد عليك بوعظ بنتك حفصة ، قال أهل اللغة : العيبة في كلام العرب وعاء يجعل الأنسان فيه أفضل ثيابه ، ونفيس متاعه فشبهت ابنته بها. (صحيح مسلم علي شرح النووي ، ٨٢/١٠).

[4] خزنت الشيء (خزنا) من باب قتل ، جعلته في المخزن وجمعه مخازن مثل مجلس ومجالس والخزانة بالكسر مثل المخزن والجمع الخزائن. (المصباح المنير ، ١٦٨/١) كتاب الخاء.

[5] وهي بضم الهمزة والكاف وتشديد الفاء وهي عتبة الباب السفلى (صحيح مسلم بشرح النووي ، ٨٢/١٠).

[6] بنون مفتوحة ثم قاف مكسورة هذا هو الصحيح الموجود في جميع النسخ وذكر القاضي أنه بالفاء بدل النون وهو فقير بمعني مفقور مأخوذ من فقار الظهر وهو جذع فيه درج. (صحيح مسلم بشرح النووي ، ٨٣/١٠).

أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرظا[١] في ناحية الغرفة وإذا أفيق[٢] معلق ، قال: فابتدرت عيناي ، قال: "ما يبكيك يا بن الخطاب؟" قلت يا نبي الله ، ما لي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانتك لا أري ما فيها إلا ما أري وذلك قيصر وكسري في الثمار والأنهار ، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك ، فقال "يا بن الخطاب ! ألا ترضي أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟" قلت: بلي. قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أري في وجهه الغضب. فقلت: يا رسول الله ! ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلما تكلمت ، وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول. ونزلت هذه الآية: آية التخيير:"عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن"[٣] "وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير"[٤] وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران علي سائر نساء النبي-ﷺ-فقلت : يا رسول الله ! أطلقتهن؟ قال : "لا" قلت يا رسول الله ! إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصي يقولون : طلق رسول الله-ﷺ-نساءه ، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: "نعم إن شئت" فلم أزل أحدثه حتي تحسر الغضب عن وجهه[٥] وحتي كشر[٦] فضحك ، وكان من أحسن الناس ثغرا ، ثم نزل نبي الله-ﷺ-ونزلت فنزلت أتشبث[٧] بالجذع ونزل رسول الله-ﷺ-كأنما يمشي علي الأرض ، ما يمسه بيده ، فقلت : يا رسول الله ! إنما كنت في الفرقة تسعة وعشرين قال: إن الشهر يكون تسعا وعشرين فقمت علي باب المسجد فناديت بأعلي صوتي : لم يطلق رسول الله-ﷺ-نساءه ونزلت هذه الآية:"وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم"[٨] فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر وأنزل الله آية التخيير"[٩].

---

(١) حب معروف يخرج من غلف كالعدس من شجر العضاه وبعضهم يقول (القرظ) ورق السلم يدبغ به الأديم (المصباح المنير ، ٤٩٩/٢) ، كتاب القاف.

(٢) هو بفتح الهمزة وكسر الفاء وهو الجلد الذي لم يتم دباغه وجمعه أفق بفتحها كأديم وأدم وقد أفق أديمه بفتحها بأفقه بكسر الفاء (صحيح مسلم ، بشرح النووي ، ٨٣/١٠-٨٤).

(٣) سورة التحريم ، من الآية: ٥.

(٤) سورة التحريم ، الآية: ٤.

(٥) أي زال وانكشف (صحيح مسلم ، بشرح النووي ، ٨٤/١٠).

(٦) هو بفتح الشين المعجمة المخففة أي أبدي أسنانه مبتسما ويقال أيضا في الغضب وقال ابن السكين كشر وبسم وابتسم وافتر كله بمعني واحد فإن زاد قيل قهقه وزهدق وكركر (صحيح مسلم ، بشرح النووي، ٨٤/١٠).

(٧) هو بالثاء المثلثة في آخره أي استمسك (صحيح مسلم ، بشرح النووي، ٨٤/١).

(٨) سورة النساء ،من الآية: ٨٣.

(٩) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الطلاق ، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخيرهم وقوله تعالي "وإن تظاهرا عليه" ١١٠٥/٢: ١١٠٨ ، رقم الحديث (١٤٧٩).

من خلال ما سبق يتبين لنا أن علي الإنسان التأكد من صحة ما يصل إليه من الأخبار قبل إذاعتها ، حتي لا ينتج عن العجلة بإشاعتها ضرر عظيم ، وخطر كبير ، وعليه أن يطلب البينة من ناقله ، فالأناة صفة جميلة يحبها الله ورسوله ولقد تحلي بهذه الصفة الأنبياء والمرسلون ، ومن هؤلاء سيدنا سليمان حينما تغيب عنه الهدهد فيهدد بعذابه أو ذبحه ، إلا أنه لن يقم عليه ذلك إلا بعد أن يأتيه بسلطان مبين ، قال تعالي في قصة سليمان عليه السلام:"وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين {} لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين"(١).

يقول صاحب الظلال-رحمه الله-:" ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي المخالف (لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه) ولكن سليمان ليس ملكا جبارا في الأرض إنما هو نبي ، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب ، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره ، ومن ثم تبرز سمة النبي العادل (أو ليأتيني بسلطان مبين) أي حجة قوية توضح عذره وتنفي المؤاخذة عنه"(٢).

من خلال ما سبق تبين لنا أن علي الإنسان التأكد من صحة الأخبار قبل إذاعتها ، حتي لا ينتج عن العجلة بإشاعتها ضرر عظيم ، وخطر كبير ، وحتي لا يعقب العجلة الندم ، فهو ثمرتها دائما.

رابعا التأني في القول : ويعني : أن لا يتكلم الإنسان فيما لا يعنيه ، وأن يتدبر كلامه قبل نطقه حتي لا تفاجئه عاقبته ، قال أحد العلماء محذرا من غفلة اللسان:"خف يا أخي من لسانك أشد من خوفك من السبع الضاري القريب المتمكن من أخذك ، فإن قتيل السبع من أهل الإيمان ثوابه الجنة ، وقتيل اللسان عقوبته النار إلا أن يعفو الله ، فإياك يا أخي والغفلة عن اللسان فإنه سبع ضار ، وأول فريسته صاحبه فأغلق باب الكلام من نفسك بغلق وثيق ثم لا تفتحه إلا فيما لابد منه ، فإذا فتحته فاحذر وخذ من الكلام حاجتك التي لابد منها وأغلق الباب ، وإياك والغفلة عن ذلك والتمادي في الحديث وأن يستمد بك الكلام فتهلك نفسك ، وإياك يا أخي والغفلة عنه فإنه أعظم جوارحك عليك جناية ، وأكثر ما تجد في صحيفة أعمالك يوم القيامة من الشر ما أملاه عليك لسانك ، وأكثر ما تجده في صحيفتك من الخير ما اكتسبه قلبك"(٣).

فللسان آفات لا تحصي ولا تعد إذا أطلق صاحبه له العنان ، فابستقامته تستقيم الجوارح ، وتعوج باعوجاجه ، فالواجب علي المسلم أن يتأنى في كلامه بالنظر في عواقبه قبل تلفظه به ، وليعلم أن ما من

---

(١) سورة النمل ، الآية: ٢٠ ، ٢١

(٢) الظلال ، ٢٦٣٨/٥ ، دار الشروق.

(٣) آداب النفوس لأبي عبد الله حارث بن أسد المحاسبي، صـ ٤٣: ٤٥ ، دار الجيل بيروت ، لبنان ١٩٨٤م ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

لفظ ينطق به إلا ويكتب إما له أو عليه في صحيفة أعماله ، قال تعالي:" ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"[١] قال الإمام الشنقيطي:" أي ما ينطق بنطق ولا يتكلم بكلام إلا وعنده "رقيب" أي ملك مراقب لأعماله حافظ لها ، شاهد عليها ، لا يفوته منها شيئ ، ومعني (عتيد) أي حاضر ليس بغائب يكتب عليه ما يقول من خير وشر"[٢].

فيا حسرتنا ويا ويلتنا من كلمة ننطق بها لا نلقى لها بالا فتهوي بنا في نار جهنم ، قال النبي -ﷺ- "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفع الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم"[٣]. وفي رواية أخري "إن العبد يتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب"[٤].

قال الإمام النووي "ينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبره في نفسه قبل نطقه فإن ظهرت مصلحته تكلم وإلا أمسك"[٥]. وقال الإمام الشافعي : "ينبغي للمرء أن يتفكر فيما يريد أن يتكلم به ويتدبر عاقبته فإن ظهر له أنه خير محقق لا يترتب عليه مفسدة ولا يجر إلي منهى عنه أتي به وإلا سكت"[٦]. فاحذر يا أخي من لسانك فإنه شاهد عليك يوم القيامة قال تعالي:"ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا"[٧].

فالمولي جل جلاله ينهي في هذه الآية الكريمة "عن اتباع الإنسان ما ليس له به علم ، ويشمل ذلك قوله : رأيت ولم ير، وسمعت ولم يسمع ، وعلمت ولم يعلم ، ويدخل فيه كل قول بلا علم"[٨] قال الإمام الواحدي رحمه الله: "لا تقولن في شيئ بما لا تعلم"[٩].

وقال أبو جعفر النحاس في معني قوله "لا تقف" هو من قفوت الشيء أي اتبعت أثره ، والمعني لا تتبعن لسانك ما لم تعلمه فتتكلم بالحدس والظن"[١٠]. فالآية الكريمة تحذير للإنسان من كل قول يتلفظ به بلا

---

[١] سورة ق ، الآية: ١٨.

[٢] أضواء البيان ، ٦٥٠/٧ ، بتصرف.

[٣] أخرجه البخاري فى صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان وقول النبي -ﷺ- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت وقوله تعالي "وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد" ٢٠٣٢/٤ ، رقم الحديث (٦٤٧٨) عن أبي هريرة.

[٤] أخرجه البخاري فى صحيحه ، الكتاب نفسه والباب نفسه والراوي نفسه بلفظ قريب ، ٢٠٣٢/٤، رقم الحديث (٦٤٧٧) ، كما أخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له ، ٢٢٩٠/٤ ، كتاب الزهد والرقائق ، باب التكلم بالكلمة يهوي بها فى النار ، وفي نسخة ، باب حفظ اللسان ، عن أبى هريرة.

[٥] صحيح مسلم بشرح النووي ، ١١٧/١٨.

[٦] فيض القدير ، ٣٣١/٢.

[٧] سورة الإسراء ، الآية :٣٦.

[٨] أضواء البيان للشنقيطي ، ٥٧٦/٣.

[٩] تفسير الواحدي ، ٦٣٤/٢.

[١٠] معاني القرآن للنحاس ، ١٥٦/٤ .

علم ، كأن يقول رأيت فلانا أو سمعته يفعل كذا أو يقول كذا وهو لم يره ولم يسمعه ، وغير ذلك من الأقوال التي قد تشملها الآية الكريمة ، وأما قوله " إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا" ففيه وجهان ذكرهما الشنقيطي في تفسيره ، "الأول: إن معني الآية : إن الإنسان يسأل يوم القيامة عن أفعال جوارحه فيقال له لم سمعت ما لا يحل لك سماعه؟ ولم نظرت إلي ما لا يحل لك النظر إليه؟ ولم عزمت علي ما لم يحل لك العزم عليه؟ ويدل على هذا المعني آيات من كتاب الله تعالي كقوله: " ولتسألن عما كنتم تعملون" وقوله: "فوربك لنسألنهم أجمعين {} عما كانوا يعملون" ونحو ذلك من الآيات.

الثاني: أن الجوارح هي التي تسأل عن أفعال صاحبها فتشهد عليه جوارحه بما فعل[١].وهذا الوجه الثاني هو ما أميل إليه ؛ لأن ذلك أبلغ وأقوي في الحجة ، وأفحم للعبد إذا أنكر ، فالشاهد عليه هي جوارحه التي اقترفت ما يحاسب عليه. قال تعالي:"اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون"[٢] وقال:"حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون {} وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون"[٣]وقال تعالي:"يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون"[٤] قال أبو السعود:"معني شهادة الجوارح أنه تعالي ينطقها بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر عنها من أفاعيل صاحبها"[٥] وقال السعدي: "ولقد عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم"[٦] وقال قتادة :"ابن آدم ، والله إن عليك شهودا غير متهمة من بدنك فراقبهم ، واتق الله في سرك وعلانيتك فإنه لا يخفي عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل[٧]. فكل هذه الآيات تدل علي شهادة الجوارح علي صاحبها ، وكما قلنا أعظم هذه الجوارح هو اللسان فهو من يشهد علي صاحبه فيما تكلم هل في حق أم باطل ، فليحذر الإنسان منه.

-وإليك بعض الأحاديث الشريفة التي تحذر من غفلة اللسان وتدعو إلي التأني في القول:-

الحديث الأول:عن أبي هريرة-رضي الله عنه-قال : قال رسول الله-ﷺ-:"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"[٨].

---

[١] أضوء البيان ، ٣/٥٨٩-٥٩٠ .

[٢] سورة يس ، الآية :٦٥.

[٣] سورة فصلت ، الآية :٢٠ ، ٢١.

[٤] سورة النور ، الآية: ٢٤.

[٥] إرشاد العقل السليم لـ أبي السعود ، ٦/١٦٦.

[٦] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى ، صـ ٥٦٥.

[٧] تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ، ٣/٢٧٨.

[٨] أخرجه البخاري فى صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان ، ٤/٢٠٣٢ ، رقم الحديث (٦٤٧٥).

فالشاهد في الحديث قوله-ﷺ- "فليقل خيرا أو ليصمت" والمعني :" فليقل خيرا يثاب عليه بعد التفكر فيما يريد التكلم به فإذا ظهر له أنه خير لا يترتب عليه مفسده قاله أو "ليصمت" أي يسكت عن الشر فيسلم" فكل من آمن بالله حق الإيمان خاف وعيده ، ورجا ثوابه ، ومن آمن باليوم الآخر استعد واجتهد في فعل ما يدفع به أهواله ، فيأتمر بالأوامر وينتهي عن النواهي ، ويتقرب لمولاه بما يقربه إليه ، ويعلم أن من أهم ما عليه ضبط جوارحه ، وأن أكثر المعاصي عددا وأيسرها فعلا معاصي اللسان ، فمن آمن بذلك حق إيمانه اتقي الله في لسانه"[١] وفي هذا الحديث :" استحباب ترك الكلام المباح خوفا من انجراره إلي المكروه أو الجناح"[٢].

الحديث الثاني: روي عن معاذ بن جبل[٣]أنه قال:" قلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال-ﷺ-:"ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار علي وجوههم أو علي مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم"[٤] ومعني قوله حصائد ألسنتهم" أي محصوداتها ، شبه ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود بالمنجل وهو من بلاغة النبوة فكما أن المنجل يقطع ولا يميز بين الرطب واليابس والجيد والرديء ، فكذلك لسان بعض الناس يتكلم بكل نوع من الكلام حسنا وقبيحا ، والمعني : لا يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم من الكفر، والقذف ، والشتم ، والغيبة ، والنميمة ، والبهتان ونحوها"[٥].

الحديث الثالث: قال-ﷺ-:"من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة"[٦]. قال ابن حجر: "قوله "ما بين لحييه" بفتح اللام وسكون المهملة والتثنية هما العظمان في جانبي الفم ، والمراد بما بينهما اللسان وما يتأتي به النطق ... وقال : النطق باللسان أصل في حصول كل مطلوب فإذا لم ينطق به إلا في خير سلم ، وقال ابن بطال : دل الحديث علي أن أعظم البلاء علي المرء في الدنيا لسانه وفرجه ، فمن وقي شرهما وقي أعظم الشر"[٧].

---

(١) شرح الزرقاني ، ٣٨٣/٤ بتصرف.

(٢) عون المعبود ، ٤٣/١٤.

(٣) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس ، يكنى أبا عبد الرحمن ، أسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، وشهد العقبة مع السبعين وبدرا والمشاهد كلها ، بعثه النبي – إلى اليمن بعد غزوة تبوك ، مات فى طاعون عمواس بناحية الأردن من الشام سنة ثمان عشرة (صفة الصفوة المجلد الأول ٢٥٣/١ وما بعدها).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في حرمة الصلاة ١١/٥ ، رقم الحديث (٢٦١٦) ، وهو حديث طويل اقتصرت فيه علي محل الشاهد ، وقال أبو عيس : هذا حديث حسن صحيح ، كما ذكره الحاكم في المستدرك ، ٤٤٧/٢ ، كتاب التفسير "تفسير سورة السجدة" ، وقال الحاكم : صحيح علي شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٥) تحفة الأحوذي ، ٣٦٥/٧.

(٦) أخرجه البخاري فى صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان ، ٢٠٣٢/٤ ، رقم الحديث (٦٤٧٤) عن سهل بن سعد.

(٧) فتح الباري ، ٣١٦/١١.

الحديث الرابع: عن أبي هريرة-رضي الله عنه-قال :" سئل النبي-ﷺ-عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، قال: "التقوي وحسن الخلق" وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: "الأجوفان الفم والفرج"[١].

الحديث الخامس: عن أنس قال :" قال رسول الله-ﷺ-:"من سره أن يسلم فيلزم الصمت"[٢]. قال المناوي : من سره أن يسلم في الدنيا من أذي الخلق ، وفي الآخرة من عقاب الحق ، فيلزم الصمت عما لا يعنيه ولا منفعة فيه ، ليسلم من الزلل ، ويقل حسابه ؛ لأن خطر اللسان عظيم ، وآفاته كثيرة ، ولسلامة اللسان حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع والشيطان ، وليس يسلم من ذلك كله إلا بتقييده بلجام الشرع"[٣].

وغير ذلك من الأحاديث التي كلها توضح معني واحدا وهو أن علي الإنسان أن يملك لسانه ، ولا يتكلم بكلمة إلا بعد أن يتبينها ويتدبرها ، وينظر في عواقبها ، فإن رأي فيها خيرا نطق بها وإلا فلا ، ولقد ذكر العلماء أقوالا تدعو إلي التأني في القول ، وتحذر من غفلة اللسان ، ومن هذه الأقوال: "قال أبو حاتم أنشدني المنتصر بن بلال:

ولا تسبقن الناس بالرأي وائتد فإنك إن تعجل إلي القول تذلل

ولكن تصفح رأي من كان حاضرا وقل بعدهم رسلا وبالحق فاعمل[٤]

وقال بعض الحكماء : من أخلاق الحمق العجلة ، والخفة ، والجفاء ، والغرور ، والفجور ، والسفه ، والجهل ، والتواني ، والخيانة ، والظلم ، والضياع ، والتفريط ، والغفلة ، والسرور ، والخيلاء ، والفجر ، والمكر ، إن استغني بطر ، وإن افتقر قنط ، وإن فرح أشر ، وإن قال فحش ، وإن سئل بخل ، وإن سأل ألح ، وإن قال لم يحسن ، وإن قيل له لم يفقه ، وإن ضحك نهق ، وإن بكي خار"[٥].

وقال أبو حاتم-رضي الله عنه-:"إن الرافق لا يكاد يسبق ، كما أن العجل لا يكاد يلحق ، وكما أن من سكت لا يكاد يندم ، كذلك من نطق لا يكاد يسلم ، والعجل يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويحمد قبل أن يجرب ، ويذم بعد ما يحمد ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويمضي قبل أن يعزم ، والعجل تصحبه الندامة

---

[١] أخرجه الحاكم فى مستدركه علي الصحيحين ، كتاب الرقاق ، ٣٦٠/٤ ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، و أحمد فى مسنده ٤٤٢/٢.

[٢] ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد، باب ما جاء في الصمت وحفظ اللسان ، ٢٩٧/١٠ ، وقال فيه عثمان بن عبد الرحمن الوقاصى وهو متروك ، وينظر المعجم الأوسط ، ٢٦٤/٢.

[٣] فيض القدير ، ١٥١/٦.

[٤] روضة العقلاء لمحمد بن حبان البستي أبى حاتم ، صـ ١٩٢ ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٣٩٧-١٩٧٧ ، المحقق /محمد محي الدين عبد الحميد.

[٥] أخبار الحمقي والمغفلين ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي صـ٣٥ ، المكتب التجاري ، بيروت.

وتعتزله السلامة ، وكانت العرب تكني العجلة أم الندامات"[١]. وقال :" الواجب علي العاقل أن لا يغالب الناس علي كلامهم ولا يعترض عليهم فيه ، لأن الكلام وإن كان في وقته خطوة جليلة ، فإن الصمت في وقته مرتبة عالية ، ومن جهل بالصمت عي بالمنطق ، والإنسان إما هو صورة ممثلة أو صالة مهملة لولا اللسان ، والله-ﷻ-رفع جارحة اللسان علي سائر الجوارح ، فليس فيها شيئ أعظم أجرا منه إذا أطاع ، ولا أعظم ذنبا إذا جني وانشد:

لئن كان يجني اللوم ما أنت قائل ولم يك منه النفع فالصمت أيسر

فلا تبد قولا من لسانك لم يرض مواقعه من قبل ذاك التفكر[٢].

ومن الأقوال أيضا:"لسان العاقل يكون وراء قلبه ، فإذا أراد القول رجع إلي القلب ، فإن كان له قال وإلا فلا ، والجاهل قلبه في طرف لسانه ما أتي علي لسانه تكلم به ، وما عقل دينه من لم يحفظ لسانه ، واللسان إذا صلح تبين ذلك علي الأعضاء ، وإذا فسد فكذلك"[٣] ومنها:"العاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يسأل ، ولا يقول إلا لمن يقبل ، ولا يجيب إذا شوتم ، ولا يجازي إذا سمع لأن الابتداء بالصمت وإن كان حسنا ، فإن السكوت عند القبيح أحسن منه"[٤].

"وعن ابن المبارك أنه سمع رجلا يتكلم بما لا يعنيه فقال : احفظ لسانك فإن اللسان سريع إلي المرء في قتله ، وإن اللسان بريد الفؤاد يدل الرجال علي عقله"[٥].قال أبو العتاهية[٦]:

الصمت أجمل بالفتي من منطق في غير حينه

كل امرئ في نفسه أعلي وأشرف من قرينه[٧].

وغير ذلك من الأقوال التي هي دعوة أكيدة للتأني في الكلام ، وتدبره وترك الخوض فيما لا فائدة منه ولا طائل تحته.

---

[١] روضة العقلاء ، صـ ٢١٦.

[٢] روضة العقلاء ، صـ٤٢.

[٣] روضة العقلاء ،صـ ٤٧.

[٤] روضة العقلاء ، صـ٤٧.

[٥] شعب الأيمان ، باب في حفظ اللسان ، فصل في فضل الكون عما لا يعنيه ، ٢٧٦/٤ رقم الحديث (٥٠٧٦).

[٦] إسماعيل بن القاسم بن سويد العنزى من قبيلة عنزة ، شاعر مكثر سريع الخاطر ، فى شعره إبداع ، كان ينظم المائة والمائة والخمسين بيتا فى اليوم ، توفى سنة ٢١١هـ ، ٨٢٦م.(الأعلام ٣٢١/١ التاسعة ١٩٩٠م).

[٧] ديوان أبى العتاهية ، صـ ٤٤٩ ، بعنوان لا خير في حشو الكلام ، دار صادر بيروت ، تحقيق وشرح/ كرم البستاني.

وبعد سرد بعض الأمور التى يجب فيها التأنى والتبين يجدر بنا أن نذكر بعض الأقوال الواردة في ذم العجلة ، منها : قال ذو النون[١]:"أربع خلال لها ثمرة :العجلة ، والعجب[٢] واللجاجة[٣] والشره[٤] فثمرة العجلة الندامة ، وثمرة العجب البغضة ، وثمرة اللجاجة الحيرة [٥] ، وثمرة الشره الفاقة[٦]"[٧].

كما بين أبو جعفر البغدادي أنها من الخصال التي لا تحسن أن يتصف بها الناس ، فقال:" ست خصال لا تحسن بستة رجال ، لا يحسن الطمع في العلماء ، ولا العجلة في الأمراء ، ولا الشح في الأغنياء ، ولا الكبر في الفقراء ، ولا السفه في المشايخ ولا اللؤم في ذوي الأحساب"[٨] كما أن العجلة من أخلاق الجاهل ، قال وهب بن منبه[٩]:"من أخلاق الجاهل عشرة أخلاق سيئة ، الطيش ، والسفه ، والضجر ، والعجلة ، والغضب ، والملامة ، والكذب ، وبغض الخير ، وحب الشر ، ... ثم قال : ويتشعب من العجلة الخسران ، والندامة ، وقلة الفهم ، وسوء النظر ، وفراق الصاحب ، وطلاق المرأة ، وتضييع المال ، وشماتة العدو ، واكتساب الشر ، واكتساب الملامة والمذمة"[١٠].

وبهذا أنشد محمد بن عيسى بن طلحة بن عبدالله يدعو بعدم الاستعجال بالبطش والظلم علي أحد فقال:

---

[١] ذو النون المصرى بن إبراهيم أبو الفيض أصله من النوبة ، يقال اسمه فيض ويقال ثوبان ، وذو النون لقب ، أسند أحاديثا كثيرة عن مالك والليث بن سعد وغيرهم ، توفى سنة ست وأربعين ومائتين ودفن فى مقابر أهل المعافر(صفة الصفوة ، المجلد الثانى ٢٦١/٤ وما بعدها).

[٢] الكبر والزهو ، المعجم الوسيط ، ٥٨٤/٢ ، باب العين ، الطبعة الثانية.

[٣] العناد فى الخصومة والتمادى فيها (المرام في المعاني والكلام (القاموس الكامل د/مؤنس رشاد الدين صـ٧٢٥ دار الراتب الجامعة سوفتير ط الأولي ، بيروت ٢٠٠٠م ، ١٤٢٠هـ).

[٤] شره علي الطعام وغيره (شرها) من باب تعب : حرص أشد الحرص فهو (شره) (المصباح المنير ، ٣١٢/١ كتاب الشين).

[٥] التردد (المرام في المعاني والكلام (القاموس الكامل د/مؤنس رشاد الدين صـ ٣٣٧.

[٦] الحاجة ، والفقر ، القاموس الكامل د/مؤنس رشاد الدين، صـ ٦٢٤.

[٧] شعب الإيمان للبيهقي باب في حسن الخلق ، فصل في التواضع وترك الزهو والصلف والخيلاء والفخر والمدح ، ٢٩٤/٦ ، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠ ، الأولي ، تحقيق/ محمد السعيد بسيوني زغلول.

[٨] فيض القدير للمناوي ، ٣٦٤/٢.

[٩] وهب بن منبه الصنعانى ، أبو عبد الله ، عالم بأساطير الأولين ، يعد من التابعين ، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم قصرى إلى اليمن ، توفى سنة ١١٤هـ ، ٧٣٢م.(الأعلام للزركلى ١٢٥/٨ ، الثامنة ١٩٨٩م).

[١٠] تهذيب الكمال ليوسف بن الزكي عبد الرحمن أبى الحجاج المزي المولود ٦٥٤هـ - ٧٤٢ ، ١٥٨/٣١-١٥٩ بتصرف، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٠، ١٩٨٠ الأولى ، تحقيق/ بشار عواد معروف.

فلا تعجل علـــي أحـــد بظلـــم فإن الظلم مرتعه[1] وخـــيم[2]

ولا تفحش وإن بليـــت ظلمـــا علي أحد فإن الفحـــش لـــوم

ولا تقطع أخا لك عنـــد ذنـــب فإن الـــذنب يغفـــره الكـــريم

ولكـــن دار عورتـــه برفـــق كما قد ترقع الخلـــق القـــديم

ولا تجزع لريب الدهر واصبر فإن الصبر في العقبي ســـليم

فما جزع سيغني عنـــك شـــيئا ولا ما فات ترجعه الهموم[3]

وقال أبو حاتم البستي[4]:"العجلة تكون من الحدة ، وصاحب العجلة إن أصاب فرصته لـــم يكـــن محمودا ، وإن أخطأها كان مذموما ، والعجل لا يسير إلا مناكبا للقصد ، منحرفا عن الجادة ، يلتمس مـــا هو أنكد وأوعر وأخفي مسارا ، يحكم حكم الورهاء[5] ويناسب أخلاق النساء"[6]. وقال أيضـــا : "العجلـــة موكل بها الندم وما عجل أحد إلا اكتسب ندامة واستفاد مذمة ، لأن الزلل مع العجل والإقدام علي العمـــل بعد التأني فيه أحزم من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه ، ولا يكون العجول محمودا أبدا[7] والعاقل يعلم أن العجز في الأمور يقوم في النقص مقام الإفراط فـــي الســـعي فيتجنبهـــا معـــا ويجعـــل لنفســـه مســـلكا

---

(1) الرتع : الأكل والشرب رغدا في الريف ، رتع يرتع رتوعا ورتاعا ، والاسم الرتعة يقال خرجنا نرتع ونلعب أي نتـــنعم ونلهو وقوم مرتعون : راتعون إذا كانوا مخاصيب ، والموضع مرتع وكل مخصب مرتع ، لسان العرب ١٥٧٧/٣ باب الراء.

(2) وخم : يقال هذا الأمر وخيم العاقبة أي ثقيل ردئ ، لسان العرب، ٤٧٩١/٦ ، باب الواو.

(3) شعب الإيمان للبيهقي ، ٥٨/٦ ، فصل في ذكر ما ورد في التشديد في الظلم ، دار الكتب العلميـــة بيـــروت ، ١٤١٠ ، الطبعة الأولي ، تحقيق/ محمد السعيد بسيوني زغلول.

(4) محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ التميمى أبو حاتم البستى ، ولد فى بست ، ورحـــل إلـــى خراســـان والشـــام ومصروالعراق ، تولى قضاء سمرقند مدة ثم عاد إلى نيسابور ومنها إلى بلده ، حيث توفى فى عشر الثمانين من عمره ، من كتبه المسند الصحيح فى الحديث وروضة العقلاء فى الأدب ، توفى ســـنة ٣٥٤هـــ ، ٩٦٥م (الأعـــلام ٧٨/٦ العاشرة).

(5) الورة ، الحمق في كل عمل ويقال : الحزق في العمل. (لسان العرب ٤٨٢٠/٦) مادة وره ، باب الواو.

(6) روضة العقلاء ، صـــ ٢١٧.

(7) إلا في أمور الدين كما أوضحنا سالفا.

بينهما"[1].وكثير من الأقوال واردة في ذم العجلة يذخر بها كتاب روضة العقلاء فمن أحب الاستزادة فليرجع إليه.

أمر هام يجب التنبيه إليه وهو: أن هناك فرقا بين التأني والتواني ، فالتواني هو الكسل وتضييع الحزم وعدم القياس علي مصالح النفس وترك التسبب ، والاحتراف والإحالة علي المقادير وهذا من أقبح الأفعال ، أما التأني: فهو خلاف التواني وهو الرفق ورفض العجلة والنظر في العواقب ، وقد قيل: من نظر في عواقب الأمور سلم من آفات الدهور ، وقال بعض الحكماء : إذا شككت فاجزم ، وإذا استوضحت فاعزم ، وقال يد الرفق تجني ثمرة السلامة ، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة وأنشدوا في ذلك:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقال التأني حصن السلامة ، والعجلة مفتاح الندامة ، وقالوا إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأني ، فبماذا يدرك؟!"[2]. قال ابن القيم رحمه الله : "إنما كانت العجلة من الشيطان لأنها خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم ، وتوجب وضع الأشياء في غير موضعها ، وتجلب عليه أنواعا من الشرور ، وتمنعه أنواعا ، وهي قرين الندم ، فقل من استعجل إلا ندم ، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة"[3].

---

[1] روضة العقلاء ، صـ ٢١٧.

[2] المستطرف في كل فن مستظرف ، لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي ، ١٢٨/٢، ١٢٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، الطبعة الثانية ، تحقيق مفيد محمد قميحة.

[3] الروح ، لابن القيم ، صـ ٢٥٨.

obeikandl.com

البحث الثانى

دعوة القران والسنة الى الصبر:

الصبر من الأخلاق الفضيلة ، والخصال الشريفة التى يتحلى بها الإنسان ، وبها شرفه خالقه-ﷻ- فما من فضيلة اتصف بها الإنسان إلا والصبر مبدؤها .

تعريف الصبر لغة واصطلاحا :

-الصبر لغة : قال ابن فارس-رحمة الله-:" الصاد و الباء والراء أصول ثلاثة ، الأول :الحبس ، والثاني : أعالي الشيئ ، والثالث : جنس الحجارة"[1]وقد اشتق الصبر المراد هنا من المعنى الأول وهو الحبس ،قال صاحب مقاييس اللغة :" فالأول الصبر وهو الحبس يقال صبرت نفسي عن ذلك الأمر أى حبستها ، والمصبورة المحبوسة على الموت ، ونهى رسول الله-ﷺ-عن قتل شيئ من الدواب صبرا"[2]،وقال صاحب المصباح المنير:"صبرت صبرا من باب " ضرب " حبست النفس عن الجوع"[3]. وقال ابن منظور : "الصبر نقيض الجزع ، صبر يصبر صبرا فهو صابر وصبار وصبير وصبور ، والأنثى صبور أيضا بغيرها وجمعه صبر"[4] وقال الراغب : "الصبر : الإمساك فى ضيق ، يقال صبرت الدابة بمعنى حبستها بلا علف"[5].

من خلال هذه المعان اللغوية يتبين أن الصبر معناه فى اللغة: الحبس والإمساك .

وللصبر مسميات عدة ، قال الراغب :" الصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي "صبرا" ويضاده "الجزع" ، وإن كان في محاربة سمي "شجاعة" ويضاده "الجبن" ، وان كان فى نائبة مضجرة سمي" رحب الصدر" ويضاده "الضجر" ، وإن كان فى إمساك الكلام سمي " كتمانا "ويضاده"المذل" وقد سمي الله تعالى كل ذلك صبرا ونبه عليه بقوله:"والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس " و"الصابرين على ما أصابهم"[6].

---

(1) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٣٢٩ ، باب الصاد والباء وما يثلثهما ، الطبعة الأولى ، ط دار الجبل بيروت ١٤١١، ١٩٩١م . تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون .

(2) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٣٢٩ ، باب الصاد والباء وما يثلثهما

(3) المصباح المنير صـ٣٣١ ، كتاب الصاد .

(4) لسان العرب لابن منظور ٤/٢٣٩٢، باب الصاد ، وينظر الصحاح فى اللغة والعلوم صـ٥٨٧ ، إعداد وتصنيف/ نديم مرعشلى ، أسامة مرعشلى . ط . دار الحضارة .

(5) المفردات للأصفهانى " صـ٢٧٣ ، كتاب الصاد .

(6) المفردات للأصفهانى ، صـ٢٧٣ ، كتاب الصاد.

-الصبر اصطلاحا : عرف العلماء الصبر فى الاصطلاح بعدة تعريفات منها :"حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه "[1] وقيل :" قوة مقاومة الأهوال والآلام الحسية والعقلية "[2] وقيل:" ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله ؛ لأن الله تعالى أثنى على أيوب -عليه السلام- بقوله"إنا وجدناه صابرا"[3] مع دعائه بدفع الضر عنه بقوله:"وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين"[4] فعلمنا أن العبد إذا دعا الله تعالى فى كشف الضر عنه لا يقدح فى صبره"[5] وقيل:" هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها . وقيل : تجرع المرارة من غير تعبس ، وقيل:هو التباعد عن المخالفات ، والسكون عن تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة ، وقيل: هو الوقوف مع البلاء بحسن الآداب ، وقيل: هو الغنى فى البلوى بلا إظهار شكوى ، وقيل : هو الثبات مع الله وتلقى بلائه بالرحب والدعة ، وقيل : هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة"[6]. وغير ذلك من الأقوال التى توضح لنا معنى هذا الخلق الرفيع وفضيلته ، وقد" ذكر الله "الصبر" فى كتابه في أكثر من تسعين موضعا ، كما قرنه بالصلاة فى قوله تعالى:"واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين"[7] وجعل الإمامة فى الدين موروثة عن الصبر واليقين بقوله:"وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون"[8] فإن الدين كله علم بالحق وعمل به ، والعمل به لا بد فيه من الصبر ، بل وطلب علمه يحتاج الى الصبر"[9]

والصبر مطلوب فى جميع الأمور بل "واجب" . من هذه الأمور على سبيل المثال لا الحصر :

الصبر على مشاق الدعوة إلى الله -عز وجل-:

الصبر صفة المؤمنين الصالحين ، وطريق للدعاة العاملين ، ومنهج للعلماء الصالحين ، به يبلغ المرء مراده ، وينصر دعوته ، وينشر رسالته ، فإذا ابتغى أى فرد من الأفراد نجاحه فى أى أمر من الأمور؛ فلا بد أن يتزود بزاد الصبر ، ويجعله له عنوانا وصاحبا ، ولله در القائل إذ يقول:

---

[2] المفردات للأصفهانى ، صـ٢٧٣ ، كتاب الصاد.

[3] التوقيف على مهمات التعاريف ، لمحمد عبد الرءوف المناوى صـ٤٤٧ . باب الصاد ، فصل الباء .

[3] سورة ص ، الآية: ٤٤ .

[4] سورة الأنبياء ، الآية: ٨٣ .

[5] التعريفات للجرجاني صـ(١٧٢) باب الصاد .

[6] ينظر لهذه التعريفات فى عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين للإمام شمس الدين بن القيم الجوزية صـ١٤، ط . دار المنار ، تحقيق/ محمد عبد الملك الزغبي .

[7] سورة البقر ة ، الآية: ٤٥

[8] سورة السجد ة ، الآية: ٢٤

[9] مجموع فتاوى ، لـ شيخ الإسلام محمد بن تيمية ، ١٠ / ٣٩ ، جمع / عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، الأولى ١٣٩٨م ، مؤسسة الرسالة.

"لا تحسبن المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر"[١]

لذلك جعل الله-ﷻ- الصبر من صفات أهل الفلاح الذين استثناهم من الخسران ، فقال:"والعصر {} إن الإنسان لفي خسر {} إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر"[٢]. فالواجب على الداع أن يوطن نفسه على تحمل أعباء الدعوة بما يصيبه من الأذى الذى يعترضه وهو فى طريقه إلى الدعوة حسبة لوجه الله ، فطريق الدعوة ليست سهلة ممهدة ، بل هي أشواك ومنحنيات وابتلاءات واختبارات ؛ ولذا فقد أوصى لقمان ابنه بالصبر حين رباه على تبليغ الدعوة والقيام بها فقال له:"يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور"[٣] فالمتأمل فى هذه الوصية وجد أنها جمعت القيام بالفرائض ، وعلى رأسها الصلاة ، لتحسن الصلة بينه وبين مولاه ، ولتستقيم على الطريق قدماه . ولم تقتصر الوصية على ذلك ، بل جعلت هذه الصلة دافعا له ،إلى حب دعوته ، والقيام بنشرها ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، ثم بينت له طبيعة الطريق ،وأنها شاقة ستعرضه للآلام والأذى من أهل الشر ، لينالوا منه، فيقفون عثرة أمامه ، يقذفونه بالتهم ، ويشوشون على دعوته ، ويسيئون إلى سيرته ، ويسخرون منه ومن أتباعه ، ويحذرون الناس من الإقتداء به ، والسير على منهجه ، ومن ثم فقد أوصته بالصبر الذى هو من عزم الأمور ، قال الرازي رحمه الله : " لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة ، وهى العبادة لوجه الله مخلصا ... ثم قال تعالى "وأمر بالمعروف وانه عن المنكر" أى إذا كملت أنت فى نفسك بعبادة الله فكمل غيرك فإن شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا فى أنفسهم ويكملوا غيرهم ، ثم قال تعالى: "واصبر على ما أصابك" يعنى أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه"[٤] وقال ابن عطية:" وصى ابنه بعظم الطاعات وهى الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل هو فى نفسه ، ويزدجر عن المنكر، .... وقوله " اصبر على ما أصابك " يقتضى حضا على تغيير المنكر وإن نال ضررا ،فهو اشعارا بأن المغير يؤذى أحيانا ،وهذا القدر هو على جهة الندب والقوة فى ذات الله ، وأما على اللزوم فلا"[٥].

قال الشيخ تقي الدين :" الصبر على أذى الخلق عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إن لم يستعمل لزم أحد أمرين: إما تعطيل الأمر والنهى ، وإما حصول فتنة ومفسدة أعظم من مفسدة ترك الأمر والنهى أو مثلها أو قريب منها، وكلاهما معصية وفساد .قال تعالى :"وأمر بالمعروف وانه عن المنكر

---

[١] الأمالى فى لغة العرب لأبي على إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ١١٣/١ ، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨م .

[٢] سورة العصر

[٣] سورة لقمان ، الآية: ١٧

[٤] مفاتيح الغيب للرازي المجلد الثالث عشر ٢٥ / ١٣٠ ، ١٣١ .

[٥] المحرر الوجيز ٤ / ٣٥١ .

واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور" فمن أمر ولم يصبر أو صبر ولم يأمر أو لم يأمر ولم يصبر حصل من هذه الأقسام الثلاثة مفسدة وإنما الصلاح فى أن يأمر ويصبر"[١].

ولقد حذا عمير بن حبيب[٢] حذو لقمان الحكيم فى وصيته لولده فقال:"إذا أراد أحدكم أن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى وليثق بالثواب من الله ، ومن يثق بالثواب من الله لا يجد مس الأذى"[٣].

فالداعى " يجب أن يكون صبورا على مشاق الدعوة إلى الله وما يحف بها من متاعب وآلام ، تنوء بها الظهور ، وتضعف عن حملها الكواهل-إلا من رحم الله- وذلك أن أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس أن يتحرروا من أهوائهم وأوهامهم وأولادهم ومألوفاتهم ، ويثوروا على شهوات أنفسهم ، ومعبودات آبائهم ، وعادات أقوامهم ، وامتيازات طبقاتهم ، وينزلوا عن بعض ما يملكون إلى إخوانهم ، ويقفوا عند حدود الله فيما أمر ونهى وأحل وحرم ، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة ؛ فلهذا يقاومونها بكل قوة ، ويحاربون دعاتها بكل سلاح ، مدللين بأنهم أكثر مالا ، وأعز نفرا ، وأقوى نفوذا ، وأوسع سلطانا ، فليس أمام دعاة الحق إلا أن يعتصموا باليقين ويتسلحوا بالصبر فى وجه القوة الضارية ، والسلطة الطاغية"[٤]

وعلى الداعى أن يضع نصب عينيه ما أصاب المرسلين من الأذى والاضطهاد ، فنوح-عليه السلام- تحمل الأذى من قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وهم يشتمونه ، ويؤذونه ويستهزئون من دعوته ، ويذيقونه أشد أنواع الإيذاء ، فتارة يرمونه بالجنون ، وتارة يسخرون منه وهو يصنع السفينة ، كل ذلك وهو صابر على الدعوة ، محتسب لوجه الله-عز وجل- قال تعالى:"ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون"[٥] وسيدنا إبراهيم-عليه السلام-دعا قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، فما كان منهم إلا أن ألقوه فى النار ، وهو مع ذلك صابر على أذاهم حتى أنجاه الله منها فقال للنار:"كوني بردا وسلاما على إبراهيم"[٦] وسيدنا موسى-عليه السلام-أوذي في الله إيذاء شديدا فصبر واحتسب حتى قال الله فيه:"يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند

---

[١] الآداب الشرعية والمنح المرعية لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن مفلح المقدسى الحنبلي صـ١٨١ ، فصل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٧ ه ، ١٩٩٦م .

[٢] عمير بن حبيب بن خماشة بن جويبر بن عبيد بن عنان بن عامر بن خطمة الأنصاري ، كان ممن بايع تحن الشجرة ، وهو جد أبي جعفر الخطمي (الإصابة ٤/٧١٤).

[٣] الدر المنثور ٦ / ٥٢٣ دار الفكر ، بيروت ١٩٩٣م .

[٤] الصبر في القرآن ليوسف القرضاوى صـ٤٨ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة التاسعة ١٩٩١م

[٥] سورة العنكبوت ، الآية: ١٤ .

[٦] سورة الأنبياء ، الآية: ٦٩ .

الله وجيها"[1] ولقد اختلف فى نوع هذا الإيذاء ، فقيل: إيذاؤه بنسبته إلى عيب فى بدنه ... فلقد روى عن أبى هريرة-ﷺ-قال :" قال رسول الله-ﷺ-: إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شيئا استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة[2] وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : " ثوبي حجر ، ثوبي حجر " حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق الحجر ضربا بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا فذلك قوله:"يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها"[3] وقال آخرون : بل كان أذاهم إياه ادعاءهم عليه قتل هارون أخيه ، فعن على بن أبى طالب-ﷺ-فى قول الله "لا تكونوا كالذين آذوا موسى" قال: صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون ، فقالت بنو إسرائيل : أنت قتلته ، وكان أشد حبا لنا منك وألين لنا منك فآذوه بذلك ، فأمر الله الملائكة فحملته حتى مروا به على بنى إسرائيل ، وتكلمت الملائكة بموته حتى عرف بنو إسرائيل أنه قد مات ، فبرأه الله من ذلك ، فانطلقوا به فدفنوه فلم يطلع على قبره أحد من خلق الله إلا الرخم [4] فجعله الله أصم وأبكم"[5].

قال ابن جرير الطبري: "وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال أن بنى إسرائيل آذوا نبي الله ببعض ما كان يكره أن يؤذى به ؛ فبرأه الله مما آذوه به ، وجائز أن يكون ذلك كان قيلهم إنه أبرص ، وجائز أن يكون ادعاؤهم عليه قتل أخيه هارون ، وجائز أن يكون كل ذلك ؛ لأنه قد ذكر كل ذلك أنهم قد آذوه به، ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قال الله إنهم آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا"[6] وقال ابن كثير: "يحتمل أن يكون الكل مرادا وأن يكون معه غيره"[7].

---

(1) سورة الأحزاب ، الآية: ٦٩ .

(2) الأدرة بالضم : نفخة فى الخصية (لسان العرب ١ / ٤٤ باب الهمزة) .

(3) أخرجه البخاري فى صحيحه كتاب الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام ، رقم الحديث (٣٤٠٤) كما أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الفضائل ، باب فضائل موسى عليه الصلاة والسلام ٤ / ١٨٤١ ، رقم الحديث (٣٣٩).

(4) الرخم : نوع من الطير معروف واحدته رخمة وهو موصوف بالغدر والمسوق وقيل بالقذر (النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢ / ٢١٢ باب الراء مع الخاء) .

(5) جامع البيان ٢٢ / ٥٢ .

(6) جامع البيان ٢٢ / ٥٢ ، ٥٣ .

(7) تفسير القرآن العظيم ، لـ ابن كثير ٣ / ٥٢١ .

"وبالجملة ، الإيذاء فى القرآن كاف وهو أنهم قالوا له :"فاذهب أنت وربك فقاتلا"[١] ، وقولهم: "لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة"[٢] وقولهم:"لن نصبر على طعام واحد" [٣] إلى غير ذلك "[٤].

فليتأمل الداعية حال سيدنا موسى وصبره على أداء الدعوة ؟! لتكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله ... ثم يتأمل حال المسيح-عليه السلام-وصبره على قومه واحتماله فى الله ، وما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه ، وطهره من الذين كفروا وانتقم من أعدائه ، وقطعهم فى الأرض ، ومزقهم كل ممزق ، وسلب ملكهم وفخرهم إلى أخر الدهر.

فإذا ما جئنا إلى النبي محمد-ﷺ-وتأملنا سيرته مع قومه وصبره فى الله ، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله ، وتلون الأحوال عليه من سلم ، وخوف ، وغنى ، وفقر ، وأمن ، وإقامة فى وطنه ، وظعن عنه ، وتركه لله ، وقتل أصحابه وأوليائه بين يديه ، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى ، من القول ، والفعل ، والسحر ، والكذب ، والافتراء عليه ، والبهتان ، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله ، فلم يؤذ نبي ما أوذي ، ولم يحتمل فى الله ما أحتمله ولم يعط نبى ما أعطيه ، فرفع الله له ذكره ، وقرن اسمه باسمه ، وجعله سيد الناس كلهم ، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاها ، وأسمعهم عنده شفاعة ، وكانت تلك المحن والابتلاءات عين كرامته ، وهى مما زاده الله بها شرفا وفضلا ، وساقه بها إلى أعلى المقامات ، وهذا حال ورثته من بعده ، الأمثل فالأمثل كل له نصيب من المحنة ، يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له"[٥].

فلقد روى عن النبى-ﷺ-أنه سئل: أى الناس أشد بلاء ؟ قال :"الأنبياء [٦] ثم الأمثل[٧] فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه[٨] فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان فى دينه رقة[٩]ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة"[١٠].

---

[١] سورة المائدة ، من الآية: ٢٤ .

[٢] سورة البقرة ، من الآية: ٥٥ .

[٣] سورة البقرة ، من الآية: ٦١ .

[٤] مفاتيح الغيب المجلد الثالث عشر ٢٥ / ٢٠١ .

[٥] مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم الجو زيه ١ / ٣٠١ ط دار الكتب العلمية ، بيروت.

[٦] أى هم أشد فى الابتلاء ، لأنهم يتلذذون بالبلاء كما يتلذذ غيرهم بالنعماء ، لأنهم لو لم يبتلوا لتوهم فيهم الألوهية ، ولتوهن على الأمة الصبر على البلية . تحفة الأحوذى ٧ / ٧٨.

[٧] الأمثل افعل من المثالة والجمع أماثل وهم الفضلاء وقيل : أى الأشراف فالأشراف والأعلى فالأعلى رتبة ومنزلة يعنى من هو أقرب إلى الله بلاؤه أشد ؛ ليكون ثوابه أكثر ، تحفة الأحوذى ٧ / ٧٩ .

[٨] أى مقداره ضعفا وقوة ونقصا وكمالا . تحفة الأحوذى ٧ / ٧٩.

[٩] أى ذا رقة ويحتمل أن يكون رقة اسم كان أى ضعف ولين . تحفة الأحوذى ٧ / ٧٩ .

[١٠] أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب الزهد ، باب ما جاء فى الصبر على البلاء ٤ / ٦٠١ ، ٦٠٢ ، رقم الحديث (٢٣٩٨) من حديث مصعب بن سعد عن أبيه وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

فلقد تحمل نبينا -ﷺ- الكثير والكثير فى سبيل الدعوة إلى الله ما يجعله قدوة لكل داع يقتدي به في الصبر على أداء الدعوة ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ما روى عن عائشة -رضي الله عنها- زوج النبى -ﷺ- أنها قالت للنبي -ﷺ-: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال : " لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[١] ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال ، فسلم على ثم قال : يا محمد ! فقال : ذلك فيما شئت أن أطبق عليهم الأخشبين [٢] ، فقال النبى (ﷺ): "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا"[٣].

قال ابن حجر :" فى هذا الحديث بيان شفقة النبى -ﷺ- على قومه ومزيد صبره وحلمه وهو موافق لقوله تعالى:"فبما رحمة من الله لنت لهم"[٤] وقوله :"وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[٥]"[٦]. ولأنه -ﷺ- هو المبعوث رحمة للعالمين ، فلقد كان كلما أصابه حزن وهم ، أمره الله فى كثير من الآيات بالصبر على قومه ، ولا يستعجل عذابهم فكل أمر له مقدار عنده ﷻ ، ومن هذه الآيات قوله تعالى :"واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين"[٧]. "فهو أمر له بإتباع الوحي والتنزيل ، فإن وصل إليه بسبب ذلك الاتباع مكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه ، وهو خير الحاكمين"[٨].

---

[١] قرن الثعالب : هو قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد ، وهو على مرحلتين من مكة وأصل القرن كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير . (صحيح مسلم بشرح النووى ١٢ / ١٥٥) .

[٢] الأخشبين : هما بفتح الهمزة وبالخاء والشين المعجمتين . جبلا بمكة : أبو قبيس والجبل الذى يقابله . (صحيح مسلم بشرح النووى ١٢ / ١٥٥)

قال ابن الأثير : الأخشب كل جبل خشن غليظ الحجارة . (النهاية لابن الأثير ٢ / ٣٢ ، باب الخاء والشين) .

[٣] أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب : إذا قال أحدكم : أمين والملائكة فى السماء ، فوافقت أحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ٢ / ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، رقم الحديث (٣٢٣١) .كما أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الجهاد والسير ، باب ما لقى النبى -ﷺ- من أذى المشركين والمنافقين ٣ / ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، رقم الحديث (١٧٩٥) .

[٤] سورة آل عمران ، من الآية: ١٥٩ .

[٥] سورة الأنبياء ، الآية:١٠٧.

[٦] فتح الباري ٦ / ٣٦٤ .

[٧] سورة يونس ، الآية: ١٠٩ .

[٨] مفاتيح الغيب للرازي المجلد التاسع ١٧ / ١٤٠ ، ١٤١ بتصرف .

وقيل إن هذه الآية لما نزلت " جمع النبي الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم . فقال : " إنكم ستجدون بعدى أثرة حتى تلقوني على الحوض"[1]. والحديث كما جاء فى صحيح البخارى : ما روى : أن ناسا من الأنصار قالوا لرسول الله-ﷺ-حين أفاء الله على رسوله-ﷺ-من أموال هوازن ما أفاء ، فطفق يعطى رجالا من قريش المائة من الإبل ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله-ﷺ-يعطى قريشا ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم !! (قال أنس : فحدث رسول الله-ﷺ-بمقالتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم ولم يدع معهم أحدا غيرهم ، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله-ﷺ-فقال : " ما كان حديث بلغنى عنكم ؟ " قال له فقهاؤهم : أما ذوو آرائنا يا رسول الله ! فلم يقولوا شيئا ، وأما أناس منا حديثة أسنانهم ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله-ﷺ-يعطى قريشا ويترك الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم ! فقال رسول الله-ﷺ-:"فإني أعطى رجالا حديثى عهدهم بكفر ، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعوا إلى رجالكم برسول الله ؟ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به " قالوا : بلى يا رسول الله ! قد رضينا . فقال لهم : " إنكم سترون بعدى أثرة[2] شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله تعالى ورسوله-ﷺ-على الحوض"قال أنس فلم نصبر"[3].

كما أمره الله-ﷻ-بالصبر كما صبر نوح-عليه الصلاة والسلام-فقال عز من قائل :"تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين"[4]. أى "اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على أذى قومه"[5]. وقال له: "ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى {} فاصبر على ما يقولون"[6].

قال الإمام الرازي : " لما أخبره تعالى بأنه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر على ما يقولون ، ولا شبهة فى أن المراد أن يصبر على ما يكرهه من أقوالهم ، فيحتمل أن يكون ذلك قول بعضهم إنه ساحر أو مجنون أو شاعر إلى غير ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة ، ويحتمل أيضا تركهم القبول منه ، لأن كل ذلك مما يغمه ويؤذيه ؛ فرغبه تعالى فى الصبر وبعثه على الإدامة على الدعاء إلى الله تعالى وإبلاغ ما حمل من الرسالة وأن لا يكون ما يقدمون عليه صارفا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد الرابع ٨ / ٢٤٨ ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٩٣م.

(٢) الأثرة : فيها لغتان أحدهما ضم الهمزة وإسكان الثاء وأصحهما وأشهرهما بفتحهما جميعا ، والأثرة الاستئثار المشترك أى يستأثر عليكم ويفضل عليكم غيركم بغير حق (صحيح مسلم على شرح النووي ٧ / ١٥١ ، ١٥٢).

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب فرض الخمس ، باب ما كان النبى يعطى المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ٢ / ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، كما أخرجه فى كتاب المغازى ، باب غزوه الطائف ٣ / ١٣٠٨ من حديث أنس بن مالك ، وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه ٢ / ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، رقم الحديث (١٠٥٩) عن أنس أيضا .

(٤) سورة هود ، الآية: ٤٩ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الخامس ٩ / ٣٤ ط ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ١٩٩٣م.

(٦) سورة طه، الآية: ١٢٩ وجزء من الآية: ١٣٠ .

له عن ذلك"[1]. فالمدوامة على الدعوة دليل على ثبات رأيه وعدم تقلبه فى الرأي ؛ إذا لو سكت عن الدعوة لقال الكافرون أنه متقلب الرأي ولا ثبات له ؛ ولهذا قال له-ﷻ-:فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون"[2].

قال الإمام ابن القيم:"أمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم فى عدم الصبر ؛ فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم ، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا ، وما خفوا ولا استخفوا ، فمن قل يقينه قل صبره ، ومن قل صبره خف واستخف ، فالموقن الصابر رزين ؛ لأنه ذو لب وعقل ، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات ، كما تلعب الرياح بالشيئ الخفيف"[3]. "فالصبر وسيلة المؤمنين فى الطريق الطويل الشائك الذى قد يبدو أحيانا بلا نهاية ! والثقة بوعد الله الحق ، والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك ...الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين ، ومن تكذيبهم للحق وشكهم فى وعد الله ، ذلك أنهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين ، فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله ، فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين ، مهما يطل هذا الطريق ، ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم!"[4].

ولم يكن ابتلاؤه-ﷺ-بدعا فى حامل الرسالة ومبلغها ، بل لقد ابتلى إخوانه من الرسل قبله فصبروا ؛ لذا أمره ﷻ بالصبر على التبليغ كما صبر من سبقه ، فقال:"فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم..... "[5]. قال الإمام السعدي:" أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له ، وأن لا يزال داعيا لهم إلى الله ، وأن يقتدى بصبر أولى العزم من المرسلين سادات الخلق أولى العزائم والهمم العالية ، الذى عظم صبرهم وتم يقينهم ، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم ، والقفو لآثارهم ، والاهتداء بمنارهم ، فامتثل-ﷺ-لأمر ربه فصبر صبرا لم يصبره نبى قبله ، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة ، قاموا جميعا بصده عن الدعوة إلى الله ، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة وهو-ﷺ-لم يزل صادعا بأمر الله ، مقيما على جهاد أعداء الله ، صابرا على ما يناله من الأذى حتى مكن الله له فى الأرض ، وأظهر دينه على سائر الأديان ، وأمته على سائر الأمم"[6]. وقال الإمام الألوسى فى معنى الآية : " اصبر كما صبر الرسل المجدون والمجتهدون فى تبليغ الوحى ، لا يصرفهم عنه صارف ، ولا يعطفهم عنه عاطف ، والصابرون على أمر الله تعالى فيما عهده-سبحانه-إليهم أو قضاه وقدره-ﷻ-

---

[1] مفاتيح الغيب للرازي المجلد الحادي عشر ٢١ / ١١٥ .

[2] سورة الروم ، الآية: ٦٠ .

[3] التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم صـ٥٥ ، دار الفكر .

[4] فى ظلال القرآن لسيد قطب ، المجلد الخامس ٢١ / ٢٧٧٨ .

[5] سورة الأحقاف ، من الآية: ٣٥ .

[6] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان لـ السعدي صـ٧٨٤ .

عليهم بواسطة أو بدونها "[١]. والعزيمة كما قال الراغب : " عقد القلب على إمضاء الأمر ، يقال عزمت الأمر وعزمت عليه واعتزمت "[٢].

ولقد ورد العديد من الأقوال فى تعيين أولى العزم المذكورين فى الآية [٣] وأصحها أنهم :" نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ، وأما سيدنا محمد-ﷺ-فهو وإن كان من أولى العزم إلا أنه لا يدخل فى سياق الآية ؛ لأنها وردت مخاطبة إياه بالصبر كصبر إخوانه ، فلو دخل فى سياق الآية للزم أمره بالصبر كصبر نفسه ولا يكاد يصح ذلك . وهو ما أفاده الإمام الألوسى فى روحه "[٤]. وقوله:"ولا تستعجل لهم " أى بالدعاء عليهم ، وقيل : فى إحلال العذاب بهم فإنه أبعد غاياتهم يوم القيامة ، ومفعول الاستعجال محذوف وهو العذاب "[٥]. قيل إن النبي-ﷺ-ضجر من قومه بعض الضجر ، وأحب أن ينزل الله العذاب بمن أبى من قومه فأمر بالصبر وترك الاستعجال "[٦].

فالداعي إلى الله يجب أن يكون متفائلا صبورا على النصر فلا يمل ولا يفتر ولا يضجر ، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله المرة تلو الأخرى ، لذلك نهى الله-ﷻ-رسوله-ﷺ-أن يحذو حذوا أخيه يونس عليه الصلاة والسلام فى ضجره وعجلته على قومه فقال : "فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم"[٧] قال الإمام الرازي : "قوله :"فاصبر لحكم ربك" فيه وجهان : الأول : فاصبر لحكم ربك فى إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم ، والثاني : فاصبر لحكم ربك فى أن أوجب عليك التبليغ والوحي وأداء الرسالة ، وتحمل ما يحصل بسبب ذلك من الأذى والمحنة"[٨].

وقوله:" ولا تكن كصاحب الحوت" أى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائه"[٩]. قال الإمام السعدي :" لا تشابه فى الحالتى التى أوصلته وأوجبت له الانحباس فى بطن الحوت ، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه وذهابه مغاضبا لربه"[١٠].

وملخص تجربة يونس-عليه السلام-التي يذكر الله بها محمدا-ﷺ-لتكون له زادا ورصيدا ، وهو خاتم النبيين ، الذى سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة ؛ ليكون هو صاحب الحصاد الأخير...

---

[١] روح المعانى ٢٦ / ٣٤ .

[٢] المفردات للراغب صـ٣٣٤ ، كتاب العين .

[٣] ينظر إليها فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الثامن ١٦ / ١٤٥ ، ١٤٦ .

[٤] ينظر روح المعاني ٢٦ / ٣٥ .

[٥] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد الثامن ١٦ / ١٤٦.

[٦] مفاتيح الغيب للرازي ،المجلد الرابع عشر ٢٨ / ٣١.

[٧] سورة القلم ، الآية: ٤٨ .

[٨] مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد الخامس عشر ٢٩ / ٨٦.

[٩] الكشاف ٤ / ٦٠٠ .

[١٠] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان لـ السعدي صـ ٨٨١ .

فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير ، عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة ، وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد ، كما كانت مهمة الرسل قبله ، وعبء إمداد البشرية بعده ، بكل أجيالها وكل أقوامها ، بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجد فى حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب ، وكل يوم يأتي بجديد ... ملخص تلك التجربة-أن يونس-عليه السلام-أرسله الله إلى أهل قرية ، فاستبطأ إيمانهم ، وشق عليه تلكؤهم ، فتركهم مغاضبا قائلا فى نفسه : إن الله لن يضيق على بالبقاء بين هؤلاء المتعنتين المعاندين ، وهو قادر على أن يرسلني إلى قوم آخرين ! وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينة فلما كانوا فى وسط اللج ثقلت السفينة وتعرضت للغرق ، فأقرعوا بين الركاب ؛ للتخفف من واحد منهم ، لتخف السفينة .... فكانت القرعة على يونس ، فألقوه فى اليم فابتلعه الحوت ؛ عندئذ نادى وهو فى هذا الكرب الشديد فى الظلمات فى بطن الحوت وفى وسط اللجة ، نادى ربه :" لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" فتداركه نعمة من ربه ، فنبذه الحوت على الشاطئ ..... لحما بلا جلد .... وحفظ الله حياته بقدرته التى لا يقيدها قيد من مألوف البشر المحدود ! .. هذه هى التجربة التى مر بها صاحب الحوت ، يذكر الله بها رسوله محمد-صلى الله عليه وسلم-فى موقف العنت والتكذيب بعد ما أخلاه من المعركة كما هى الحقيقة ، وأمره بتركها له يتولاها كما يريد ، وقتما يريد ، وكلفه الصبر لحكم الله وقضائه فى تحديد الموعد ، وفى مشقات الطريق حتى يحين الموعد المضروب ! .... ففي الطريق مشقات كثيرة مشقات التكذيب والتعذيب ، ومشقات الالتواء والعناد ، ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه ، ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون ، ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق ، لا ترتاب ولا تتردد فى قطع الطريق ، مهما تكن مشقات الطريق .... وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق "[1].

"إن أصحاب الدعوات لابد أن يحتملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها .... ولابد أن يثابروا ويثبتوا ، ولابد أن يكرروا الدعوة ويبدئوا فيها ويعيدوا ، فلا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود ، فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب ، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة... وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف.... ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أوصاد القلوب ! إن طريق الدعوات ليس هينا لينا ، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة ، فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات ، والنظم والأوضاع ، يجثم على القلوب ، ولابد من إزالة هذا الركام ، ولابد من استحياء القلوب بكل وسيلة ، ولابد من لمس جميع المراكز الحساسة ، ومن محاولة العثور على العصب الموصل ..... واحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء ، ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشرى تحويلا تاما فى لحظة متى أصابت اللمسة موضعها ، وإن الإنسان ليدهش أحيانا وهو يحاول ألف محاولة ، ثم إذا لمسة عابرة تصيب موضعها فى الجهاز البشرى فينفض كله بأيسر مجهود ، وقد أعيا من قبل على كل

---

[1] فى ظلال القرآن ، سيد قطب ، المجلد السادس ٢٩ / ٣٦٧٠ ، ٣٦٧١ ، بتصرف.

الجهود ! وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال ....إنك لتحرك المشير مرات كثيرة ذهابا وإيابا فتخطئ المحطة وأنت تدقق وتصوب ، ثم إن حركة عابرة من يدك ، فتتصل الموجة وتنطلق الأصداء والأنغام !! إن القلب البشرى هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال ، وأصحاب الدعوات لابد أن يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق ، ولمسة واحدة بعد ألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال !! إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب ؛ لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس.... إنه عمل مريح قد يفثأ[1] الغضب ، ويهدئ الأعصاب ، ولكن أين هى الدعوة ؟ وما الذى عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟ إن الدعوة هى الأصل لا شخص الداعية ! فليضق صدره ، ولكن ليكظم ويمض ، وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون ! إن الداعية أداة فى يد القدرة ، والله أرعى لدعوته وأحفظ ، فليؤد هو واجبه فى كل ظرف ، وفى كل جو ، والبقية على الله ، والهدى هدى الله"[2].

والواجب على الداعية أن يعلم أنه لن يستجيب كل الناس لما يقول ، وعليه أن يتذكر قول النبى-ﷺ-:"إن قلوب بنى أدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء"[3] ولقد قال الله لرسوله-ﷺ-إمام الدعاة وسيدهم وقادتهم وقدوتهم:"فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا"[4]قال ابن كثير فى تفسيره:" يقول تعالى مسليا رسوله-ﷺ-فى حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه كما قال تعالى:" فلا تذهب نفسك عليهم حسرات " وقال:"ولا تحزن عليهم " وقال: "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين" باخع أى مهلك نفسك بحزنك عليهم... أى لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات"[5]. لذلك ظل رسول الله-ﷺ-متفائلا طول حياته بظهور الإسلام وعلو كلمته ، وانتشاره فى بقاع الأرض .. نعم لقد كان-ﷺ-متفائلا حتى وهو بمكة يلاقى هو وأصحابه أشد أنواع الإيذاء والاضطهاد ، فها هو-ﷺ-يملأ قلوب أصحابه بالنصر ، مبددا ما فى أنفسهم من الحزن على فعل الكفار بهم حين اشتكوا شدة الإيذاء مستبطئين النصر، فقد روى عن خباب بن الأرت[6] قال : شكونا إلى رسول الله-ﷺ-وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ، فقال :"قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له فى

---

[1] فثأ الرجل وفثأ غضبه يفثؤه فثأ : كسر غضبه وسكنه بقول أو بغيره ، باب الفاء، لسان العرب ٥ / ٣٣٤٨.

[2] في ظلال القرآن ، سيد قطب ، المجلد الرابع ١٧ / ٢٣٩٣ ، ٢٣٩٤ بتصرف يسير .

[3] أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء ٤ / ٢٠٤٥ ، رقم الحديث(٢٦٥٤) ، عن عبد الله بن عمر بن العاص.

[4] سورة الكهف ، الآية: ٦ .

[5] تفسير القرآن العظيم ، لـ ابن كثير٣ / ٧٣ ط ، دار الفكر ، بيروت .

[6] خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد التميمى ، صحابى من السابقين ، قيل أسلم سادس ستة ، شهد المشاهد كلها ونزل الكوفة فمات بها وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ، روى له البخارى ومسلم وغيرهما ، توفى ٣٧هـ ، ٦٥٧م (الأعلام ٣٠١/٢)

الأرض ، فيجعل فيها ؛ فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط[١]الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون"[٢].

هكذا يجب أن يكون الداعى متفائلا ، لا يترك لليأس مدخلا إلى نفسه فى لحظة من اللحظات ، وعليه أن يستمر فى دعوته ، ويجدد فى أسلوبه ووسائله ، دون ملل أو فتور؛ لأن واجبه هو البلاغ والإنذار، قال الإمام النووي–رحمه الله–: " لا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكونه لا يفيد فى ظنه ، بل يجب عليه فعله ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، فإن الذى عليه الأمر والنهى لا القبول"[٣]. وكما يقول د/يوسف القرضاوى فى كتابه : " لا يتحقق النصر بين عشية وضحاها ، ولا تشرق شمس إلا بعد ليل طويل حالك من الشدائد والمحن المتعاقبة تزيغ أهولها الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر ، ويظن الناس بالله الظنون... بعدها يجيئ الغوث للملهوف والفرج للمكروب"[٤].

وكما يجب على الداعى أن يكون متفائلا ،" يجب عليه أيضا أن يكون مترويا طويل البال فلا يستعجل الإجابة ، بل يجب أن يجعل لنفسه " وقتا لاكتشاف مواطن الخير فى نفس المدعو ، والوصول إلى الطريق القريب لاستغلال مواهبه ، والداعية المتحلي بهذه الصفة يتيح الفرصة للمدعو أن يتعلم ويسأل ، ويقتنع فتتضح شخصيته نضجا يساعد على وصوله إلى الالتزام والعمل بهذا الدين ، والخطر فى العجلة يكمن فى تسرع الداعية فى العمل مع المدعو فيستحث خطواته ، ويستعجل حركاته ، ويجذبه بحماس زائد ، فإن المدعو تتقطع أنفاسه فينفر الداعية ويكسل ، أو تتزاحم الأفكار عليه فلا يقتنع بما يسمع ، كما يكمن الخطر كذلك فى رمى الداعية المدعو بالكسل والبلادة وأنه بطيئ الخطا قليل الحركة ، عديم المواهب ، فيرفع عنه يديه ، ويترك العمل معه ، فيفقد الوقت الذى أمضاه معه ويخسر الجهد الذى بذله ، وتلك خسارة ضخمة فى ميزان العمل الدعوى !! لذا كان التأنى والتروي وعدم العجلة سبيلا إلى الخير المنشود للدعوة والداعية والمدعو"[٥].

---

[١] أمشاط جمع مشط بكسر الميم وبضمها يقال مشاط وأمشاط كرماح وأرماح . فتح الباري ٧ / ٢٠٤ ، قال صاحب المصباح : (المشط) الذى يتمشط به بضم الميم ، وتميم تكسر وهو القياس ؛ لأنه ألة ، والجمع (أمشاط) ، (والمشاطة) بالضم ما يسقط من الشعر عند مشطه . (المصباح المنير ٢ / ٥٧٤ ، كتاب الميم).

[٢] أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ٥ / ٢١٧٠ ، رقم الحديث (٦٩٤٣) .

كما أخرجه فى كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام ٣ / ١١١٤ رقم الحديث (٣٦١٢) .

[٣] صحيح مسلم بشرح النووي ٢ / ٢٣ .

[٤] الصبر ليوسف القرضاوى صـ٥١ ، ٥٢ بتصرف .

[٥] الدعوة الفردية فقها وتطبيقا للدكتور/ يسرى محمد هانى ، صـ٨٢ ، ٨٣ ، بتصريف يسير .

الصبر في تلقى العلم : إذا كنا فى معرض الحديث عن صبر الداع وهو المعلم فيجب التنبيه أيضا على صبر المدعو وهو المتعلم ، فإن المتلقي للعلم يجب أن يكون صبورا على تلقيه ، قال الإمام الشافعي-رحمه الله-في ديوانه :

"اصبر على مر الجفا من معلم فإن رسوب العلم فى نفراته

ومن لم يذق مر التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته

ومن فاته التعليم وقت شبابه فكبر عليه أربعا لوفاته "[1].

فهذه أبيات عظيمة من الإمام الشافعي تبين لنا أهمية الصبر على التعلم ، حيث جعل العلم حياة وضده هو الموت ، قال معاذ بن جبل-ﷺ-:"عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة ، ومعرفته خشية ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، ومذاكرته تسبيح ، به يعرف الله ويعبد ، وبه يمجد الله ويوحد ، ويرفع الله بالعلم أقواما ، يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم وينتهون إلى رأيهم" فجعل البحث عن العلم من الجهاد ، ولابد فى الجهاد من الصبر ولهذا قال تعالى:"والعصر {} إن الإنسان لفي خسر {} إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر"[2] فالعلم النافع هو أصل الهدى ، والعمل بالحق هو الرشاد ، وضد الأول الضلال ، وضد الثانى الغي ، فالضلال العمل بغير علم ، والغي إتباع الهوى ، وقال تعالى:"والنجم إذا هوى {} ما ضل صاحبكم وما غوى"[3] فلا ينال الهدى إلا بالعلم ولا ينال الرشاد إلا بالصبر[4].

فيجب على المرء الصبر على معلمه ؛ ليحصل منه على العلم النافع فى الدنيا والآخرة. أما فى الدنيا : فبالعلم يصل الإنسان إلى أرقى الدرجات وأعلاها ويكتسب صاحبه وقارا واحتراما بين الناس ، وأما فى الآخرة : فهو العمل الذى لا ينقطع ثوابه بعد موت صاحبه مصداقا لقول رسول الله-ﷺ-:"إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"[5].

وللصبر على التعلم فوائد كثيرة استنبطها المفسرون من الخطاب الموجه من الله-ﷻ-لحبيبه ومصطفاه-ﷺ-حينما تعجل بتلاوة القرآن في بداية نزوله عليه مخافة النسيان:"ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه"[6]. من هذه الفوائد:

---

[1] ديوان الشافعي صـ٣٣ .

[2] سورة العصر .

[3] سورة النجم ، الآيتان: ١ ، ٢ .

[4] مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠ / ٣٩ ، ٤٠ .

[5] أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه كتاب الوصية ، باب ما يلحق الأنسان من الثواب بعد وفاته ٣ / ١٢٥٥ ، عن أبى هريرة .

[6] سورة طه ، من الآية: ١١٤ .

-" أن المستمع للعلم ينبغى أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملى والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض ، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال ، ولا يبادر بالسؤال ، وقطع كلام ملقى العلم فإنه سبب للحرمان"[١].

-ومنها:"أن التدبر فى العلم أنفع من الاستعجال المتعب للبال المكدر للحال وأعون على الحفظ (فمن وعى شيئا حق الوعي حفظه غاية الحفظ)"[٢].

-ومنها : "أن العلم خير وكثرة الخير مطلوبة ، والطريق إليها الاجتهاد ، والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه فى كل وقت"[٣] وصدق صاحب الظلال إذ يقول:"وما العلم إلا ما يعلمه الله . فهو الباقي الذى ينفع ولا يضيع ويثمر ولا يخيب"[٤] ولقد سبق الحديث عن قصة موسى مع الخضر -عليهما السلام-وما فات موسىعليه السلام من العلم الكثير بسبب تعجله بالإنكار على معلمه ، فيجب على المتعلم أن يأخذ العبر والمواعظ من تلك القصة ، ونزيد هنا ما ذكره الإمام الغزالي فى شأن هذه القصة فيقول:"نبه تعالى بقصة الخضر وموسى-عليهما السلام-حيث قال الخضر :" قال إنك لن تستطيع معي صبرا {} وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا"[٥] ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال:" فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا"[٦] ثم لم يصبر ولم يزل فى مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما. وبالجملة ، كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا دون اختيار المعلم فأحكم عليه بالإخفاق والخسران ، فإن قلت : فقد قال الله تعالى:"فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"[٧]! فالسؤال مأمور به ، فأعلم أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم فى السؤال عنه ، فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم ، ولذلك منع الخضر موسى عليهما السلام من السؤال ؛ أى دع السؤال قبل أوانه ، فالمعلم أعلم بما أنت أهل له ، وبأوان الكشف ، وما لم يدخل أوان الكشف فى كل درجة من مراق الدرجات لا يدخل أوان السؤال عنه.

وقد قال على-رضي الله عنه-: "إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته في الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفش له سرا ، ولا تغتابن أحدا عنده ، ولا تطلبن عثرته ،

---

[١] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان لـ السعدي صـ٥١٤ .

[٢] نظم الدرر ٢ / ٣٥٢ بتصرف .

[٣] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان لـ السعدي صـ٥١٤ .

[٤] فى ظلال القرآن ١٦ / ٢٣٥٣ .

[٥] سورة الكهف ، الآيتان: ٦٧ ، ٦٨ .

[٦] سورة الكهف ، من الآية: ٧٠ .

[٧] سورة النحل ، من الآية: ٤٣ .

وإن زل قبلت معذرته ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته"[١].

كانت هذه هى حقوق المعلم على تلميذه كما وضحها الإمام على-كرم الله وجهه- وهناك حق أخر يجب التنبيه عليه وهو الصبر على المعلم وقت انشغاله بأمر ما ، وعدم المبادرة بمناداته حتى يفرغ من عمله ، ولقد تمثل هذا الحق فى الخطاب الذى وجهه الله لجماعة من أجلاف العرب نادوا رسول الله-ﷺ- فى وقت الظهيرة وهو مع زوجاته ، واستعجلوا خروجه ، ولم ينتظروا حتى يخرج إليهم ، فعاتبهم الله-ﷻ-معلما إياهم أنه لا ينبغى العجلة فى الأمور ، وأن الأولى بهم الصبر والتأني والانتظار تأدبا مع حضرة خاتم الأنبياء والمرسلين ، قال تعالى حاكيا عن هؤلاء القوم: "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون {} ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم"[٢]. ولقد ورد فى سبب نزول هذه الآية روايات متعددة منها وهو الأقرب للصواب: "أنها نزلت فى جفاة بنى تميم ، قدم وفد منهم على النبي-ﷺ-فدخلوا المسجد ، فنادوا النبى-ﷺ-من وراء حجرته أن اخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين ، فآذى ذلك من صياحهم النبي-ﷺ-فخرج إليهم ، فقالوا : إنا جئناك يا محمد نفاخرك ونزل فيهم : إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون"[٣].

ومنها :" أن رسول الله بعث سرية إلى بنى العنبر وأمر عليهم عيينة بن حصن الفزارى"[٤] فلما علموا بذلك هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة ، فجاء رحالهم يعذون الزرارى ، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله-ﷺ-قائل ، فجعلوا ينادون يا محمد أخرج إلينا حتى أيقظوه فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس"[٥]. ومن الروايات أيضا الواردة فى سبب النزول:أن ناسا من العرب قال بعضهم لبعض : انطلقوا

---

[١] إحياء علوم الدين للغزالي ١ / ٥٠ ، ٥١ باب فى آداب المتعلم والمعلم .

[٢] سورة الحجرات ، الآيتان: ٤ ، ٥ .

[٣] أسباب النزول للواحدى صـ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، وانظر سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، من سورة الحجرات ، باب إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ٥ / ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، عن البراء بن عازب باختصار وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

[٤] عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو بن جوية بالجيم مصغرا بن لوذان بن ثعلبة بن عدى بن فزارة الفزارى أبو مالك يقال كان اسمه حذيفة فلقب عيينة لأنه كان أصابته شجة فجحظت عيناه كان من المؤلفة ، أسلم قبل الفتح وشهدها وشهد حنينا والطائف ، بعثه النبى لبنى تميم فسبى بعض بنى العنبر ثم كان ممن ارتد فى عهد أبى بكر ومال إلى طلحة فبايعه ثم عاد إلى الإسلام وكان فيه جفاء سكان البوادي ، ومات مطعونا(الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر حـ٤ صـ٧٦٧ ط ، دار الجيل ، بيروت).

[٥] زاد المسير ٧ / ٤٥٩ ط ، المكتب الإسلامى ، بيروت .

بنا إلى هذا الرجل ، فإن يكن نبيا نكن أسعد الناس به ، وإن يكن ملكا نعش فى جناحه ، فجاءوا فجعلوا ينادون يا محمد ، يا محمد ، فنزلت هذه الآية[1].

ونلاحظ من خلال هذه الراويات أنها متفقه على أنهم استعجلوا الرسول بالخروج وأساءوا الأدب فى حضرته ، وإن اختلفت فى سبب المناداة والحاجة التى من أجلها نادوا رسول الله-ﷺ-وهو فى حجرته . فالراوية الأولى : توضح أن السبب هو المفاخرة ،والثانية : مفاداة الأسرى ، الثالثة : الإيمان به والإذعان له .

وسواء نادى القوم رسول الله-ﷺ-لغرض المفاخرة ، أو لغرض فداء أسراهم ، فلقد استعجلوا بمناداة النبى-ﷺ-فى وقت القيلولة ، وهو الوقت الذى لا ينبغى المناداة فيه ؛ ولذا فلقد عاتبهم الله تعالى لتركهم الأدب فى حضرته-ﷺ-عند عرض الحاجة عليه ، والعذر لهؤلاء ، لعدة أسباب : الأول : أنهم من أهل البادية ويغلب عليهم الجفاء والغلظة ، الثانى : أنهم كانوا حديثي العهد بالإسلام ، ولم يتأدبوا بآدابه بعد ، وهذه الأسباب قد أشار إليها الدكتور / عبد الكريم الخطيب فى تفسيره إذ يقول عند توضيح معنى هذه الآية : " هو التفات إلى النبى الكريم بهذا العذر الذى يقدمه الله-ﷻ-إليه ، عن هذا الجفاء وتلك الغلظة ، مما يغلب على أهل البادية الذين يجيئون إلى النبى ، فينادونه من وراء الحجرات التى كان يتخذها النبى سكنا له مع أهله.. فهؤلاء الأعراب لم يتأدبوا بآداب الإسلام بعد ، ولم تظهر عليهم أثاره ، وإنهم لجديرون بأن يقابلوا من النبى بالتسامح ، وأن يعذروا لهذا الجفاء الباد منهم"[2].

وكلمة (وراء) المذكورة فى الآية بمعنى خارج الحجرات سواء أكانوا خلفها أو قدامها ، وهذا ما أفاده الإمام الألوسى فى روح المعاني إذ يقول: قوله تعالى : " إن الذين ينادونك من وراء الحجرات " أى من خارجها خلفها أو قدامها على أن (وراء) من المواراة والاستتار فما استتر عنك فهو وراء خلفا أو قداما إذا لم تره ، فإذا رأيته لا يكون من ورائك ، فالوراء بالنسبة إلى من فى الحجرات ما كان خارجها لتواريه عمن فيها"[3]. والحجرات : جمع حجرة ، كالغرفات جمع غرفة ، والظلمات جمع ظلمة :"وهى الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها"[4]. قال صاحب المصباح المنير : " الحجرة البيت ، والجمع (حجر) ، و(حجرات) مثل غرفة ، وغرفات فى وجوهها"[5]. والمراد بها فى الآية كما قال صاحب روح المعاني : "حجرات نسائه-عليه السلام-وكانت تسعا لكل منهن حجرة ... وهذا اللفظ يدل على بلاغة القرآن الكريم ؛ لأنه كناية عن خلوته-عليه السلام-بنسائه لأنها معدة لها ، ولم يقل :حجرات نسائك ولا

---

[1] رواه الطبري فى تفسيره ٢٦ / ١٢١ ، عن زيد بن أرقم ، وأخرجه الطبراني فى الكبير ٥ / ٢١١ ، وذكره الهيثمى فى مجمعه ٧ / ١٠٨ وقال فيه داود بن راشد ، وثقه بن حبان وضعفه ابن معين وبقية رجاله ثقات .

[2] التفسير القرآني للقرآن المجلد السابع ٢٦ / ٤٣٨.

[3] روح المعاني للألوسى ٢٦ / ١٣٩.

[4] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الثامن ١٦ / ٢٠٤ ، بتصرف .

[5] المصباح المنير ١ / ١٢٢ ، كتاب الحاء .

حجراتك ، توقيرا له-ﷺ-وتحاشيا عما يوحشه"[١]. قال الإمام الرازي:" قوله (الحجرات) إشارة إلى كون النبى-ﷺ-فى خلوته التى لا يحسن فى الأدب إتيان المحتاج إليه فى حاجته فى ذلك الوقت ، بل الأحسن التأخير وإن كان فى ورطة الحاجة"[٢].

ومن الواضح أن ذكر لفظ الحجرات تبين لنا شناعة ما فعله هؤلاء القوم فى حضرة النبى-ﷺ- فنحن فى حياتنا هذه ، نلاحظ أن الناس فى وقت القيلولة ، لا يذهب بعضهم إلى بعض-وهذا على الأغلب- بل ينتظرون إلى ما بعد الظهيرة ؛ لعلمهم أن هذا الوقت هو لاستراحة الناس عند العودة من عملهم ؛ ولذا فقد جاء وصف القرآن لهم بعدم وجود العقل عند أكثرهم ، قال:"أكثرهم لا يعقلون" "ونفى العقل عنهم مراد به عقل التأدب الواجب فى معاملة النبى-ﷺ-أو عقل التأدب المغفول عنه فى عادتهم التى اعتادوها فى الجاهلية من الجفاء والغلظة والعنجهية ، وليس فيها تحريم ، ولا ترتب ذنب"[٣]. قال الإمام القشيري: " لو عرفوا قدرك لما تركوا حرمتك والتزموا هيبتك"[٤].

وقد يتساءل سائل : لم جاء التعبير القرآني بلفظ أكثرهم ولم يجئ بلفظ كلهم أو جميعهم ؟ والجواب كما قال صاحب التفسير الكبير:" قوله تعالى (أكثرهم) فيه وجهان ، أحدهما : أن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل ، وإنما تأتى بالأكثر احترازا عن الكذب واحتياطا فى الكلام ؛ لأن الكذب مما يحبط به عمل الإنسان فى بعض الأشياء فيقول الأكثر وفى اعتقاده الكل ، ثم إن الله تعالى مع إحاطة علمه بالأمور أتى بما يناسب كلامهم ، وفيه إشارة إلى لطيفة وهى أن الله تعالى يقول : أنا مع إحاطة علمي بكل شيئ جريت على عادتكم استحسانا لتلك العادة ، وهى الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها ، واجعلوا اختياري تلك فى كلامي دليلا قاطعا على رضائي بذلك. ثانيهما : أن يكون المراد أنهم فى أكثر أحوالهم لا يعقلون ، وتحقيق هذا هو أن الإنسان إذا اعتبر مع وصف ، ثم اعتبر مع وصف أخر يكون المجموع الأول غير المجموع الثانى ، مثاله الإنسان يكون جاهلا وفقيرا فيصير عالما وغنيا ، فيقال فى العرف ، زيد ليس هو الذى رأيته من قبل ، بل الآن على أحسن حال ..... ، إذا علم هذا فهم فى بعض الأحوال إذا اعتبرتهم مع تلك الحالة مغايرين لأنفسهم إذا اعتبرتهم مع غيرها . فقال تعالى:"أكثرهم لا يعقلون". وفيه وجه ثالث : " وهو أن يقال لعل منهم من رجع عن تلك الأهواء ، ومنهم من استمر على تلك العادة الرديئة ، فقال (أكثرهم) إخراجا لمن ندم منهم"[٥].

وهكذا فإن العقل يقتضى مراعاة الأدب مع حضرة النبى-ﷺ-لا سيما وهو سيد الخلق أجمعين ، ولا ريب فى أن النداء من وراء الحجرات فيه كلفة ، ومشقة عليه-ﷺ-بخروجه أو مشيه إلى المناد ، وقد

---

[١] روح المعاني للألوسى ٢٦ / ١٣٩ بتصرف.

[٢] مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد الرابع عشر ٢٨ / ١٠٠ .

[٣] التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥ / ٢٢٥ .

[٤] لطائف الإشارات ٣ / ٤٣٨ .

[٥] مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد الرابع عشر ٢٨ / ١٠١.

يكون مشتغلا بأمر ما كمناجاته ربه-ﷻ- فيقطعوا عليه علاقته بربه ، فكان الواجب عليهم التأنى والتمهل دون إزعاجه ، فهذا ما يقتضيه العقل وهو الأحسن والأفضل ؛ ولذا قال تعالى:"ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم".

فمن باب الاحترام أن يصبروا حتى يخرج هو إليهم ، ولا يكلموه حتى يبتدئ هو بالكلام ، فهذا من توقيره-ﷺ-قال الألوسي:" أى لو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج ، لكان الصبر خيرا من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم النبى-ﷺ-الموجبين للثناء والثواب"[1]. فهذه الآية : " إشارة إلى حسن الأدب الذى على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب فإنهم لو صبروا لما احتاجوا إلى النداء ، وإذا كنت تخرج إليهم فلا يصح إتيانهم فى وقت اختلائك بنفسك أو بأهلك أو بربك ، فإن للنفس حقا وللأهل حقا"[2] قال الإمام القشيري-رحمه الله-:"ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا ولم يوقظوك وقت القيلولة بمناداتهم لكان خيرا لهم"[3]. والخيرية في الدين والدنيا ... أما الدين : فلأن الصبر طاعة لله ، ومراعاة للأدب فى حضرة نبيه-ﷺ- وأما الدنيا ، فقد قيل :"إنهم جاءوا شفعاء فى أسرى بنى عنبر فأعتق رسول الله-ﷺ-نصفهم وفادى على النصف-ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء"[4].

أيضا الصبر على مناداته-ﷺ-"كان سيكسبهم وقارا بين أهل المدينة ويستدعى لهم الإقبال من الرسول-ﷺ-إذ يخرج إليهم غير كاره لندائهم إياه"[5]. وكلمة "خيرا" فيها وجهان ذكرهما ابن عاشور فى التحرير والتنوير إذ يقول:" فقوله "خيرا" يجوز أن يكون اسم تفضيل ، ويكون فى المعنى : لكان صبرهم أفضل من العجلة ، ويجوز أن يكون اسما ضد الشر ، أى لكان صبرهم خيرا لما فيه من محاسن الخلق بخلاف ما فعلوه فليس فيه خير ، وعلى الوجهين فالآية تأديب لهم وتعليمهم محاسن الأخلاق وإزالة العوائد الجاهلية الذميمة"[6]. وفي التعبير بقوله:" إليهم" " إشعار بأنه-عليه السلام-لو خرج لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتي يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم ، فليس زائدا بل قيد لابد منه"[7].

ولقد تجلى حلم الله-ﷻ-بهؤلاء فلم يعاقبهم علي صدور هذا الذنب العظيم منهم تجاه نبيه-ﷺ-بل غفر لهم ورحمهم لحداثتهم في الإسلام ، وجهلهم بطريقة معاملة الرسول-ﷺ-فقال-ﷻ-معجلا البشارة لهم: "والله غفور رحيم". قال الإمام الرازي: " قوله تعالي "والله غفور رحيم" تحقيقا لأمرين:أحدهما: لسوء

---

[1] روح المعاني للألوسي ٢٦ / ١٤٣.

[2] مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد الرابع عشر ٢٨ / ١٠١ .

[3] لطائف الإشارات ٣ / ٤٣٨ .

[4] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الثامن ١٦ / ٢٠٤ بتصرف دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨م .

[5] التحرير والتنوير ٢٥ / ٢٢٧ بتصرف .

[6] التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥ / ٢٢٧ .

[7] روح المعاني ١٤٣/٢٦.

صنيعهم في التعجل ، فإن الإنسان إذا أتي بقبيح ولا يعاقبه الملك أو السيد يقال ما أحلم سيده لا لبيان حلمه ، بل لبيان عظيم جناية العبد ، وثانيهما : لحسن الصبر يعني بسبب إتيانهم بما هو خير يغفر الله لهم سيئاتهم ، و يجعل هذه الحسنة كفارة لكثير من السيئات ، كما يقال للأبعد إذا رجع إلي باب سيده أحسنت في رجوعك و سيدك رحيم ، أي لا يعاقبك علي ما تقدم من ذنبك بسبب ما أتيت به من الحسنة"[١].

فالآية تفتح باب الإنابة و التوبة ، ومعناها :" أن الله بليغ المغفرة والرحمة فلم تضق ساحة مغفرته ورحمته-ﷻ-عن هؤلاء إن تابوا و أصلحوا"[٢]. يقول الدكتور عبد الكريم الخطيب:" في قوله: "والله غفور رحيم " تطمين لهؤلاء الأعراب الذين قد يقع منهم هذا الفعل ، وأنهم في سعة من رحمته الله و مغفرته ، إذ هم اخذوا بآداب القرآن ، ونزعوا عما غلبت عليه طبيعتهم .. كما أنه دعوة إلي النبي الكريم ، أن يغفر و يرحم ، فقد غفر الله ورحم"[٣].

وخلاصة القول : إن القرآن الكريم يعلمنا الأخلاق السامية ، والآداب الرفيعة ، ويهذب الطباع ، فيدعوا إلي الصبر، وعدم الاستعجال في فعل أي أمر من الأمور ، فهذا الأدب المختص به النبي-ﷺ- يقاس عليه أدب التعامل مع الأستاذ ، فان المتعلم ينبغي عليه أيضا الصبر علي معلمه ، فلا يطلبه في وقت انشغاله. فلقد حكي عن ابن عباس انه كان يذهب إلى أبي بن كعب في بيته لأخذ القرآن العظيم عنه فيقف عند الباب ولا يدق الباب عليه حتي يخرج ، فاستعظم ذلك "أبي" منه ، فقال له يوما : هلا دققت الباب يا ابن عباس؟ فقال: العالم في قومه كالنبي في أمته وقد قال الله تعالي في حق نبيه-عليه السلام-:" ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم"[٤]. قال سيد قطب:" وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع ، وتجاوزوا به شخص رسول-ﷺ-إلى كل أستاذ وعالم ، لا يزعجونه حتى يخرج إليهم ، ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم"[٥].

من الأمور التى يجب فيها أيضا الصبر وعدم التعجل الصبر عند تأخير إجابة الدعاء : الدعاء كما قال عنه رسول الله-ﷺ-مخ العبادة ، فلقد روى عن أنس بن مالك عن النبي-ﷺ- قال : "الدعاء مخ العبادة "[٦]. وفى رواية "الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ:"وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون

---

[١] مفاتيح الغيب للرازي المجلد الرابع عشر ٢٨ / ١٠١ ، ١٠٢.

[٢] روح المعاني ٢٦ / ١٤٣ ، ١٤٤ بتصرف .

[٣] التفسير القرآني للقرآن المجلد السابع ٢٦ / ٤٣٨ .

[٤] روح المعاني ٢٦ / ١٤٤ بتصرف.

[٥] فى ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ٢٦ / ٣٣٤٠ .

[٦] أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب الدعوات ، باب ما جاء فى فضل الدعاء ٥ / ٤٥٦ ، رقم الحديث (٣٣٧١) ، وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث بن لهيعة.

عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين"[1]. " فالدعاء هو العبادة الحقيقية التى تستأهل أن تسمى عبادة ؛ لدلالته على الإقبال على الله ، والإعراض عما سواه ، بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه ، قائما بوجوب العبودية ، معترفا بحق الربوبية ، عالما بنعمة الإيجاد ، طالبا لمداد الإمداد ، على وفق المراد وتوفيق الإسعاد"[2]. أيضا "لما فى الدعاء من الإخلاص والخضوع والضراعة وذلك صريح الإيمان"[3]. كما أن الداعي "إنما يدعو الله عند انقطاع أمله مما سواه ، وذلك حقيقة التوحيد والإخلاص ولا عبادة فوقهما"[4]. وفيه " إظهار الافتقار والتبرؤ من الحول والقوة وهو سمت العبادة ، واستشعار ذلة البشرية ، ومتضمن للثناء على الله وإضافة الكرم والجود إليه"[5].

كان هذا هو سر التعبير النبوي بأن الدعاء هو مخ العبادة بل هو العبادة نفسها ، وغير ذلك الكثير ؛ لذا رغب المولى-ﷻ-فى الدعاء والافتقار إليه فقال عز من قائل: "ادعوني أستجب لكم"[6].استجب لكم تفضلا ونعمة ووعدا لأمة حبيبي المصطفى-ﷺ-بالإجابة عند الدعاء.

روى عن النبى-ﷺ-فيما يرويه عن رب العزه قال :"أربع خصال واحدة منهن لى وواحدة لك ، وواحدة فيما بيني وبينك ، وواحدة فيما بينك وبين عبادي ؛ فأما التى لى فتعبدني لا تشرك بى شيئا ، وأما التى لك على فما عملت من خير جزيتك به ، وأما التى بيني وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التى بينك وبين عبادي فارض لهم ما ترضى لنفسك"[7].

وفى رواية : " أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تعطهن أمة قبلها ولا نبى: كان إذا أرسل الله نبيا قال له : أنت شاهد على أمتك ، وقال لهذه الأمة " وجعلكم شهداء على الناس ". وكان يقول له " ليس عليك فى الدين من حرج " . وقال لهذه الأمة: " وما جعل عليكم فى الدين من حرج " . وكان يقال له: ادعني أستجب لك . وقال لهذه الأمة " ادعوني استجب لكم"[8]. وهذا فضل اختص الله به أمة سيد ولد آدم أجمعين على سائر الأمم . والله-ﷻ-قريب من عباده فهو أقرب إليهم من حبل الوريد ؛ لذلك لم يجعل واسطة بينه وبين عباده عند الدعاء بل قال-ﷻ-:"وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا

---

(1) أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -ﷺ- باب ومن سورة المؤمن ٥٠ / ٣٧٥ ، رقم الحديث (٣٢٤٧) . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(2) عون المعبود شرح سنن أبو داود ٤ / ١٤٧ ، ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٥ ه ، الطبعة الثانية ، نقلا عن أبى الطيب .

(3) شرح الزرقانى ٢ / ١١٢ بتصرف.

(4) تحفة الأحوذى ٩ / ٣١١.

(5) فيض القدير للمناوى ٣ / ٥٤٠ .

(6) سورة غافر، من الآية: ٦٠ .

(7) مسند أبو يعلى لأحمد بن على بن المثنى أبو يعلى الموصلى التميمى ٥ / ١٤٣ ، دار المأمون للتراث ، دمشق ١٤٠٤ ه ، ١٩٨٤م ، الطبعة الأولى ، تحقيق / حسين سليم أسد ، وانظر تفسير القرآن العظيم ٤ / ٨٦ عن أنس بن مالك .

(8) تفسيرالقرآن العظيم لـ ابن كثير ٤ / ٨٦ ، عن قتادة عن كعب الأحبار .

دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون"[١]. فقوله " قريب " تمثيل لحاله فى سهولة إجابته لمن دعاه ، وسرعة إنجاحه حاجة من سأله ، بحال من قرب وكأنه إذا دعى أسرعت تلبيته "[٢].

يذكر الإمام السعدي فى هذا الشأن ما نصه :"الدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة . ، والقرب نوعان : قرب بعلمه من كل خلقه ، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق ، فمن دعا بقلب حاضر ودعاء مشروع ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل حرام ونحوه ؛ فإن الله قد وعده بالإجابة خصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء ؛ وهى الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية ، والإيمان به الموجب للاستجابة ولهذا قال:" فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون". أى يحصل لهم الرشد الذى هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة"[٣].

فطاعة الله والاستجابة له والإيمان بربوبيته وألوهيته هما عين إجابة الدعاء . لذا قيل:" إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد وعن كمال الطاعة"[٤]. فإذا استجاب الداع لنداء الله ، وآمن به ربا ، وحسن ظنه به ، يجب عليه أن يراعى آدابا للدعاء إلى الله-ﷻ-من هذه الآداب : الخضوع والتضرع إليه وخفض الصوت عند دعائه وعدم الاعتداء عليه بالدعاء ، قال ﷻ:" **ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين**"[٥]. أى "أدعو مولاكم فى تذلل وخشوع متعبدين له مستكينين ، خاشعة جوارحكم له ، راجين ثوابه ، خائفين من عقابه ، متأدبين فى استغاثتكم ، خافضين أصواتكم ؛ لذا نهى رسول الله أصحابه برفع أصواتهم عند الدعاء بقوله:"أربعوا[٦] على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا"[٧]. والمعنى كما قال الإمام النووي:" ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه ، وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصم ولا غائب بل هو سميع

---

[١] سورة البقرة ، الآية: ١٨٦ .

[٢] الكشاف ١ / ٢٥٥ ، ط ، دار إحياء التراث ، بيروت .

[٣] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان لـ السعدي صـ٨٧ .

[٤] كتب ورسائل ابن تيمية فى التفسيرلـ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحرانى أبو العباس ١٤ / ٣٣ ، مكتبة ابن تيمية الثانية ، تحقيق/عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمى النجدى.

[٥] سورة الأعراف ، الآية: ٥٥ .

[٦] أرفقو (غريب الحديث لابن الجوزى ١ / ٣٧٥ ، الطبعة الأولى ، ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٥ه ، ١٩٨٥م ، تحقيق د/ عبد المعطى أمين قلعجى .

[٧] الحديث أخرجه الإمام البخاري مطولا ، كتاب المغازى ، باب غزوة خيبر ٣ / ١٢٧٩ ، رقم الحديث ٤٢٠٥ ، عن أبى موسى الأشعري وقد اقتصرت فيه على محل الشاهد . كما أخرجه أيضا فى كتاب الجهاد والسير ، باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ٢ / ٩٢٠ ، رقم الحديث (٢٩٩٢) ، كما أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٤ / ٢٠٧٦ ، رقم الحديث (٢٧٠٤).

قريب ، وهو معكم بالعلم والإحاطة ، ففيه الندب إلى خفض الصوت بالذكر ، إذا لم تدع الحاجة إلى رفعه ، فإنه إذا خفضه كان أبلغ فى توقيره وتعظيمه فإن دعت الحاجة إلى الرفع رفع"[١].

فإذا تضرع الداعى إلى الله عليه ألا يعتدي عليه بالدعاء "والاعتداء فى الدعاء على وجوه منها : الجهر الكثير والصياح ، ومنها: أن يدعو الإنسان فى أن تكون له منزلة نبي ، أو يدعو فى محال أو نحو هذا من الشطط ، ومنها: أن يدعو طالبا معصية وغير ذلك ، ومنها: أن يدعو بما ليس فى الكتاب والسنة فيتخير ألفاظا مفقرة وكلمات مسجعة قد وجدها فى كراريس لا أصل لها ، ولا شعار عليها فيجعلها شعاره ، ويترك ما دعا به رسوله-ﷺ-وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء"[٢]. قال ابن تيمية(٣)-رحمه الله- :"وأي اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه أن لا يفعل ما قد أخبر أنه لا بد أن يفعله أو أن يفعل ما قد أخبر أنه لا يفعله"[٤].

وإذا راعى الداعى هذه الآداب فى الدعاء من التضرع والخشوع وانخفاض الصوت وعدم الاعتداء ، أجاب الله دعوته إن شاء-ﷻ-، أما إذا تأخرت الإجابة فلا ينبغي الجزع والاستعجال ، بل الواجب التأني والصبر ، ولقد عقد أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه-صيد الخاطر-فصلا بعنوان " لا تجزع إذا تأخرت إجابة الدعاء" قال فيه :"رأيت من البلاء أن المؤمن يدعو فلا يجاب له ، فيكرر الدعاء وتطول المدة ولا يرى أثرا للإجابة ، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذى يحتاج إلى الصبر ، وما يعرض للنفس من الوسواس فى تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب ، ولقد عرض لى من هذا الجنس ، فإنه نزلت بى نازلة ، فدعوت وبالغت ، فلم أر الإجابة ، فأخذ إبليس يجول فى حلبات كيده ، فتارة يقول : الكرم واسع والبخل معدوم ، فما فائدة تأخير الجواب ؟ فقلت له:اخسأ يا لعين ، فما أحتاج إلى تقاضى ولا أرضاك وكيلا ، ثم عدت إلى نفسي فقلت : إياك ومساكنة وسوسته ، فإنه لو لم يكن فى تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدر فى محاربة العدو لكفى فى الحكمة"[٥].

ولكن لم تأخير الإجابة وقد راعى الداعى آداب وحدود الدعاء؟ والجواب : أن هناك أمورا يجب مراعاتها عند تأخير الإجابة حتى لا يكون اليأس والجزع ، وحتى لا ندع للشيطان فرصة لمكائده ووسوسته ، وهذه الأمور هى :-

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ٢٦ .

[٢]تفسير القرطبى المجلد الرابع ٧ / ١٤٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨م .

[٣] أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم ، شيخ الإسلام ، ولد فى حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر ، من تصانيفه الفتاوى والجمع بين النقل والعقل ، توفى سنة٧٢٨هـ ١٣٢٨م.(الأعلام ١/١٤٤ التاسعة).

[٤] كتب ورسائل بن تيمية فى التفسير ١٤ / ٣٦٧ .

[٥]صيد الخاطر لشيخ العراق أبى الفرج عبد الرحمن بن الجو زى صـ ٦٧ ، تحقيق / عبد القادر احمد عطا ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية.

الأول : أنه قد ثبت بالبرهان أن الله-ﷻ-مالك ، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء ، فلا وجه للاعتراض عليه"[١].

الثاني : أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة ، فربما رأيت الشيئ مصلحة ، والحكمة لا تقتضيه ، وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذى فى الظاهر يقصد بها المصلحة ، فلعل هذا من ذاك"[٢] ولذلك نبه المولى عباده أن الحكمة والمصلحة فيما يختاره ، فلا يكرهوا شيئا قد يكون خيرا لهم ، ولا يحبوا شيئا قد يكون شرا لهم ، فقال:"وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون"[٣].

فهذه الآية وردت فى معرض تشريع القتال وكراهية المسلمين له ، فيخبرهم المولى أنه أعلم بمصالح عباده ، فقد يكون فى القتال خير ، قال ابن كثير:"لأنه يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم ، أما القعود عن القتال فيعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم ، ثم قال تعالى:" والله يعلم وأنتم لا تعلمون" أى "هو أعلم بعواقب الأمور منكم وأخبر بما فيه صلاحكم فى دنياكم وأخراكم فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون"[٤]. ولذلك قال الحسن : " لا تكرهوا الملمات الواقعة فرب أمر تكرهه فيه نجاتك ، ولرب أمر تحبه فيه عطبك"[٥]. وأنشد أخر:

"رب أمر تتقيه جر أمرا ترتضيه

خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه"[٦]

الثالث : "أن يكون التأخير مصلحة والاستعجال مضرة"[٧] قال-ﷺ-: "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لى"[٨].

---

[١] صيد الخاطر صـ٦٧

[٢] صيد الخاطر صـ ٦٧ .

[٣] سورة البقرة ، من الآية: ٢١٦ .

[٤] تفسير القرآن العظيم ، لـ ابن كثير١ / ٢٥٣.

[٥] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الثانى ٣ / ٢٨ ، دار الكتب العلمية ١٤٠٨ ه ، ١٩٨٨م .

[٦] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الثاني ٣ / ٢٨ عن أبى سعيد الضرير .

[٧] صيد الخاطر صـ ٦٨.

[٨] أخرجه البخاري فى صحيحه ، كتاب الدعوات وقول الله تعالى : " أدعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين " . ، باب : " يستجاب للعبد ما لم يعجل " ٤ / ١٩٩٤ ، رقم الحديث (٦٣٤٠) ، من حديث أبى هريرة . كما أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : " بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لى " ٤ / ٢٠٩٥ .

وورد فى صحيح مسلم رواية أخرى أنه-ﷺ-قال:"لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم-ما لم يستعجل" قيل : يا رسول الله ! ما الاستعجال ؟ قال:" يقول: قد دعوت وقد دعوت ، فلم أر يستجيب لى ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء"[١].

قال الإمام النووي:" قال أهل اللغة : يقال حسر واستحر إذا أعيا وانقطع عن الشيئ والمراد هنا : أنه ينقطع عن الدعاء وفيه قوله تعالى "لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون"[٢] أى لا ينقطعون عنها ، ففيه أنه ينبغي إدامة الدعاء ولا يستبطئ الإجابة"[٣].

قال ابن القيم الجوزى:" من الآفات التى تمنع ترتيب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء وهو بمنزلة من بذر بذرا أو غرس غرسا ، فجعل يتعهده ويسقيه فلما استبطأ كماله وإدراكه أهمله"[٤]. وقال الإمام الزرقانى : "من له ملالة من الدعاء لا يقبل دعاؤه ؛ لأن الدعاء عبادة ، حصلت الإجابة أو لم تحصل ، فلا ينبغي للمؤمن أن يمل من العبادة ، وتأخير الإجابة إما لأنه لم يأت وقتها ، وإما لأنه لم يقدر فى الأزل قبول دعائه فى الدنيا ، ليعطى عوضه فى الآخرة ، وإما أن يؤخر القبول ليلح ويبالغ فى ذلك فإن الله يحب الملحين فى الدعاء مع ما فى ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار ، ومن يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له ومن يكثر الدعاء يوشك أن يستجاب له"[٥].

فينبغي على الداع الصبر عند تأخير الإجابة ؛ لأن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه ، فالإنسان من طبيعة خلقته أنه عجول يغتر بظواهر الأمور ولا ينظر فى عواقبها . قال تعالى :"ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا"[٦]. قال الإمام الرازي:"إن الإنسان قد يبالغ فى الدعاء طلبا لشيئ يعتقد أن خيره فيه مع أن ذلك الشيئ يكون منبع شره وضرره ، وهو يبالغ فى طلبه لجهله بحال ذلك الشيئ ، وإنما يقدم على مثل ذلك العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الأمور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها"[٧].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : " بيان أنه يستجاب للعبد ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لى " ٤ / ٢٠٩٥ ، رقم الحديث (٩٢) ، عن أبى هريرة .

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية: ١٩ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ٥٢ .

(٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافى للعلامة الحافظ ابن الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ه (٣٠) ضبط وعلق عليه وقدم له د / السيد الجميلى ، دار ابن زيدون ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ ه ، ١٩٨٦م .

(٥) شرح الزرقانى ٢ / ٤٨ عن المظهري .

(٦) سورة الإسراء ، الآية: ١١ .

(٧) مفاتيح الغيب، المجلد العاشر ٢٠ / ١٣٠ .

ويستفاد من هذا القول أن الإنسان قد يدعو ربه ويلح فى طلب الشيئ وهو فى الواقع شر وفى ظنه خير فيدعو ربه به كما يدعوه بالخير ، وهذا إنما نشأ من عدم التأني والتدبر والتفكر فى حقائق الأشياء. قال الإمام القشيري:"من الأدب فى الدعاء أن لا يسأل العبد إلا عند الحاجة ثم ينظر فإن كان شيئ لا يعنيه ألا يتعرض له فإن فى الخبر :"من حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه"[1] ثم من آداب الداع إذا سأل من الله حاجته ورأى تأخيرا فى الإجابة ألا يتهم الحق-سبحانه-ويجب أن يعلم أن الخير فى ألا يجيبه ، والاستعجال فيما يختاره العبد غير محمود ، وأولى الأشياء السكون والرضا بحكمه سبحانه ، فإن لم يساعده الصبر وسأل ، فالواجب ترك الاستعجال والثقة بأن المقسوم لا يفوت ، وأن اختيار الحق للعبد خير له من اختياره لنفسه"[2].

كما أن الإنسان قد يدعو على نفسه أو ماله أو أهله أو ولده فلو استجاب الله دعاءه لهلك فكان المنع أصلح له. فلقد روى أن رسول الله-ﷺ-قال: "لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم"[3]. كما روى عن أنس بن مالك-رضي الله عنه-"أن رسول الله-ﷺ-عاد رجلا من المسلمين قد خفت مثل الفرخ[4] فقال له رسول الله-ﷺ-: " هل كنت تدعو بشيئ أو تسأله إياه ؟ قال : نعم ، كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبي بى فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا ، فقال رسول الله-ﷺ-:"سبحان الله! لا تطيقه أو لا تستطيعه ، أفلا قلت ؟ " اللهم أتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"[5] قال:" فدعا الله له فشفاه"[6] قال النووي-رحمه الله-:

---

(1) أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب الزهد ،٤ / ٥٥٨ رقم الحديث (٢٣١٧) ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبى سلمه عن أبى هريرة عن النبى -ﷺ- إلا من هذا الوجه ، كما أخرجه ابن ماجه فى سننه، كتاب الفتن ، باب كف اللسان فى الفتن ٢ / ١٣١٥ رقم الحديث (٣٩٧٦) ، عن أبى هريرة أيضا ، دار الفكر ، بيروت ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، كما أخرجه مالك فى موطأه ، كتاب الجامع باب " ما جاء فى حسن الخلق " صـ٦٥٠ ، رقم الحديث (١٦٢٩) ، عن على بن أبى طالب ، الطبعة السادسة ١٤٠٢ ه ، ١٩٨٢م .

(2) لطائف الإشارات للقشيرى ٢ / ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(3) أخرجه مسلم مطولا، كتاب الزهد والرقائق ، باب حديث جابر الطويل وقصة أبى اليسر ٤ / ٢٣٠٤ ، رقم الحديث (٣٠٠٦) عن جابر وقد اقتصرت فيه على محل الشاهد .

(4) أى ضعف ، (صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ١٣.

(5) فيه فضل الدعاء " باللهم أتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وأظهر الأقوال فى تفسير الحسنة فى الدنيا أنها العافية ، وفى الآخرة الجنة والمغفرة ، وقيل : الحسنة نعم الدنيا والآخرة . (صحيح مسلم ١٧ بشرح النووي١٧ / ١٣ ، ١٤) .

(6) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب كراهية الدعاء فى الدنيا ٤ / ٢٠٦٨ ، رقم الحديث (٢٦٨٨).

"فى هذا الحديث النهى عن الدعاء بتعجيل العقوبة ، وفيه كراهة تمنى البلاء ؛ لئلا يتضجر منه ويسخطه وربما شكا"[١].

الأمر الرابع: "أن يكون امتناع الإجابة لآفة فيك فربما يكون فى مأكولك شبهة"[٢]. فقد روى عن أبى هريرة-ﷺ-: قال: قال رسول الله-ﷺ-:" إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:"يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم " . وقال:"يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون". ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب ! يارب !و[٣] مطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له؟"[٤]. قال الإمام النووي : "فيه الحث على الإنفاق من الحلال والنهى عن الإنفاق من غيره ، وفيه أن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالا خالصا لا شبهة فيه ، وأن من أراد الدعاء كان أولى بالإعتناء بذلك من غيره"[٥]. فيجب على الإنسان أن ينظر فى مطعمه وملبسه ومشربه من أين اكتسبها أمن حلال أم من حرام قبل أن يتعجل على الله فى قبول الإجابة وقبل أن يسأل الله لم أخرت إجابتي!!

الأمر الخامس: أن الداعى قد يدعو مولاه وقلبه غافل وغير متيقن من إجابة الله-ﷻ-لدعوته ، فقد روى أن رسول الله-ﷺ-قال:"ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة ، وأعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه"[٦]. وروى أيضا أن رسول الله-ﷺ-: " قال القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتم الله-ﷻ-أيها الناس ، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل"[٧].

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ١٣.

[٢] صيد الخاطر،صـ٦٨.

[٣] معناه والله أعلم أنه يطيل السفر فى وجوه الطاعات كحج وزيارة مستحبة وصلة رحم وغير ذلك . (صحيح مسم بشرح النووي ٧ / ١٠٠).

[٤] أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٢ / ٧٠٣ ، رقم الحديث (١٠١٥) عن أبى هريرة.

[٥] صحيح مسلم بشرح النووي ٧ / ١٠٠ ،.

[٦] أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب الدعوات ، باب (٦٦) ٥ / ٥١٧ .وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والحديث مروى عن أبى هريرة ، رقم الحديث (٣٤٧٩) .

[٧] أخرجه أحمد فى مسنده ، ٢ / ١٧٧ ، عن عبد الله بن عمرو . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ، كتاب الأدعية باب أدعو الله وانتم موقنون بالإجابة ، ١٠ / ١٤٨وقال الهيثمى : " رواه أحمد وإسناده حسن .وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب" الترهيب من رفع المصلى رأسه إلى السماء وقت الدعاء وإن يدعو الأنسان وهو غافل " ٢ / ٣٢٢ ، وقال : إسناده حسن.

والمعنى :" كونوا عند الدعاء على حالة تستحقون بها الإجابة من إتيان المعروف واجتناب المنكر ورعاية شروط الدعاء كحضور القلب ، وترصد الأزمنة الشريفة والأمكنة المنيفة، واغتنام الأحوال اللطيفة كالسجود ، ذلك حتى تكون الإجابة على قلوبكم أغلب من الرد ، أو أراد وأنتم معتقدون أن الله لا يخيبكم لسعة كرمه ، وكمال قدرته ، وإحاطة علمه بتحقق صدق الرجاء ، وخلوص الدعاء ؛ لأن الداعي ما لم يكن رجاؤه واثقا لم يكن دعاؤه صادقا "[1] وقال الإمام المناوى : " كونوا على حال تستحقون فيه الإجابة بخلوص النية وحضورالجنان ، وفعل الطاعات بالأركان ، وتجنب المحظور والبهتان ، وتفريغ السر عما سوى الرحمن ، أما سمعته يقول " وجاء بقلب منيب" ؟ أى راجع إليه عما سواه ، مع إظهار الانكسار والاضطرار ، ورفض الحول والقوة ، وغلبة ظن الإجابة بحيث تكون أغلب على القلب من الرد ، لأن الداعي إذا لم يكن جازما لم يكن رجاؤه صادقا ، وإذا لم يصدق الرجاء لم يخلص الدعاء ، إذ الرجاء هو الباعث على الطلب ولا يتحقق الفرع بدون تحقق الأصل ، ولأن الداعي إذا لم يدع ربه على يقين أنه يجيبه فعدم إجابته إما لعجز المدعو أو بخله أو عدم علمه بالابتهال وذلك كله على الحق-تقدس- محال"[2].

فيجب على الداع أن يكون على حال يستحق فيها قبول دعائه . فلقد روى عن فضالة بن عبيد قال : بينا رسول الله-ﷺ-قاعد إذ دخل رجل فصلي ، فقال : اللهم اغفر لى وارحمني ، فقال رسول الله-ﷺ- :"عجلت أيها المصلى ،، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله وصل على ثم ادعه " قال : ثم صلى رجل أخر بعد ذلك ، فحمد الله وصلى على النبى-ﷺ-فقال له النبى-ﷺ-: "أيها المصلى ادع تجب"[3].

الأمر السادس : أن المولى-ﷻ-قد وعد عباده بإجابة دعوتهم ، فإما أن يعجلها له فى الدنيا أو يدخرها فى الآخرة ، فلقد روى ، أن النبى-ﷺ-قال :" ما من عبد ينصب وجهه إلى الله-ﷻ-فى مسألة إلا أعطاه الله إياها ، إما أن يعجلها وإما أن يدخرها"[4]. فانظر ما تختار لنفسك واعلم أن الباقي خير من الفان وأن الآخرة خير وأبقى ، ويوم القيامة إذا رأى العبد الداع أن ما أجيب فيه قد ذهب ، وما لم يجب فيه قد

---

(1) تحفة الأحوذى ٩ / ٤٥٠ .

(2) فيض القدير ١ / ٢٢٨ .

(3) أخرجه الترمذي فى سننه واللفظ له ، كتاب الدعوات عن رسول الله -ﷺ- ،٥ / ٥١٦ رقم الحديث (٣٤٧٦) ،وقال أبو عيسى : حديث حسن رواه حيوة بن شريح عن أبى هانئ ، وأبو هانئ اسمه / حميد بن هانئ ، وأبو على الجبنى اسمه / عمرو بن مالك .كما أخرجه النسائي فى سننه الكبرى" بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى" ، كتاب السهو ، باب " التمجيد والصلاة على النبى -ﷺ-فى الصلاة " ، المجلد الثانى ٣ / ٤٤ ، ٤٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

(4) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ، كتاب الأدعية ، باب " قبول دعاء المسلم " ١٠ / ١٤٨ ، وأخرجه / احمد فى مسنده ٢ / ٤٤٨ ، وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان باب " فى الرجاء من الله " ، ذكر فصول فى الدعاء بلفظ ما من مؤمن ينصب وجهه لله يسأل مسألة إلا أعطاها إياه : إما عجلها له فى الدنيا وإما أخرها له فى الأخرة ما لم يعجل . يقول : " قد دعوت ودعوت فلا أراه يستجاب " ٢ / ٤٧ .

بقى قال:ليت ربى لم يجب دعوتي قط ، فلقد روى عن جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما-عن النبى-ﷺ-قال :" يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه ، فيقول :"عبدي إني أمرتك أن تدعوني ، ووعدتك أن أستجيب لك ، فهل كنت تدعوني؟ فيقول : نعم يارب ! فيقول : أما إنك لم تدعني بدعوة إلا استجبت لك ، فهل ليس دعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك؟ فيقول : نعم يارب ، فيقول:" فإني عجلتها لك فى الدنيا ، ودعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجا ؟"قال:نعم يارب ! فيقول :"إني ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا " ، قال رسول الله-ﷺ-: "فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له إما أن يكون عجل له فى الدنيا ، وأما أن يكون ادخر له فى الآخرة "، وقال :"فيقول المؤمن فى ذلك المقام يا ليته لم يكن عجل له فى شيئ من دعائه"[1]. فعلى المسلم أن يفهم هذه الأشياء ويتدبرها من قبل أن يختلج قلبه ريب أو استعجال.

الأمر السابع : أن قضاء الله-ﷻ-لا يرد فربما وافقت الدعوة قضاء الله فتجاب ، وربما لا توافقه فتمتنع ، وها هو أفضل الخلق على الإطلاق سيدنا محمد-ﷺ-سأل الله-ﷻ-ألا يجعل بأس أمته بينهم فمنعها إذ كان القدر قد سبق بغير ذلك[2]. فلقد روى عن عامر بن سعد عن أبيه : أن رسول الله-ﷺ-أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ودعا ربه طويلا ، ثم انصرف إلينا ، فقال-ﷺ-: " سألت ربى ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربى أن لا يهلك أمتي بالسنة[3] فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم[4]فمنعنيها"[5].

قال أحد العلماء:"اعلم أن لله تعالى فى خلقه قضائين ، مبرما ومعلقا بفعل ، كما قال إن فعل الشيئ الفلاني كان كذا وكذا ، وإن لم يفعله فلا يكون كذا وكذا ، وهذا من قبيل ما يتطرق إليه المحو والإثبات ، كما قال تعالى : فى محكم كتابه:" يمحو الله ما يشاء ويثبت"[6] وأما القضاء المبرم فهو عبارة عما قدره سبحانه فى الأزل أن يعلقه بفعل فهو فى الوقوع نافذ غاية النفاذ بحيث لا يتغير بحال ولا يتوقف على

---

(١) ذكره البيهقى فى شعب الإيمان، باب " فى الرجاء من الله " ، ذكر فصول فى الدعاء ، ٢ / ٤٩ .

(٢) المحرر الوجيز ١ / ٢٥٥ بتصرف .

(٣) أى بالمحل والجدب والجوع (شرح الزرقانى ٢ / ٥٨) .

(٤) أى الحرب والفتن والاختلاف (شرح الزرقانى ٢ / ٥٨) .

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب " هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض " ٤ / ٢٢١٦ ، رقم الحديث (٢٨٩٠) .

(٦) سورة الرعد ، من الآية: ٣٩ .

المقضي عليه ولا المقضي له ؛ لأنه من علمه بما كان وما يكون ، وهذا من قبيل ما لا يتطرق إليه المحو والإثبات ،قال تعالى:"لا معقب لحكمه"[1]"[2].

الأمر الثامن : أنه ربما أخر الله إجابتك ليكون ذلك سببا للوقوف على بابه واللجوء إليه ، فالمولى-ﷻ-يحب الملحين فى الدعاء ، وإذا أحب الله عبدا أحب سماع صوته ، فلقد حكى عن أحد العابدين أنه رأى ربه-ﷻ-فى المنام ، فقال : يارب ، كم أدعوك ولا تجيبني؟ فقال:"إني أحب أن أسمع صوتك"[3]. هذه هي الأمور التي يجب مراعاتها عند تأخير الإجابة ، حتى لا ييأس الداع ولا يجزع . ولتعلم تمام العلم أن "تدبير الحق-ﷻ-لك خير من تدبيرك ، وقد يمنعك ما تهوى ابتلاء ليبلو صبرك ، فأره الصبر الجميل تر عن قرب ما يسر ، ومتى نظفت طرق الإجابة من أدران الذنوب وصبرت على ما يقضيه لك ، فكل ما يجرى أصلح لك ، عطاء كان أو منعا"[4].

---

[1] سورة الرعد ، من الآية: ٤١ .

[2] تحفة الأحوذى ٦ / ٣٣٣ .

[3] صيد الخاطر صـ٦٩ .

[4] صيد الخاطر صـ٢٢٧.

obeikandl.com

البحث الثالث

دعوة القرآن والسنة إلي الحلم

لقد حث القرآن الكريم علي التحلي بخلق الحلم ، كما بين النبي-ﷺ-منزلة الحليم ، وما له من عظيم الأجر في الدنيا ، وكثير الثواب في الآخرة ، وليس هذا بعجيب ولا غريب ، فإن الحلم "هو سيد الفضائل ، ومنبع الخيرات ، ومصدر السكينة والهدوء ، فالحلم من أشرف الأخلاق ، وأحقها بذوي العقول الناضجة ، فلا توجد نتيجة حسنة ، ولا غاية حميدة ، ولا نهاية سعيدة ، إلا كان الحلم سبيلها ، والموصل إليها ، لأنه يقتلع الشر من جذوره ، ويطفئ النار في أول بدورها ، ويقضي علي كل فتنة في مهدها ، ويرغم الشيطان أن يكون من المدحورين المذمومين"[١].

هذا الخلق الحميد الذى يتحلى به بعض الناس ، بل القليل منهم ، فالناس كما يقول الشيخ محمد الغزالى : "تتفاوت درجاتهم في الثبات أمام المثيرات ، فمنهم من تستخفه التوافه فيستحمق علي عجل، ومنهم من يستفزه الشدائد فيبقي علي وقعها الأليم محتفظا برجاحة فكره وسجاحة[٢] خلقه ، ومع أن للطباع الأصيلة في النفس دخلا كبيرا في أنصبة الناس من الحدة والهدوء ، والعجلة والأناة ، والكدر والنقاء ، إلا أن هناك ارتباطا مؤكدا بين ثقة المرء بنفسه وبين أناته مع الآخرين ، وتجاوزه عن خطئهم ، فالرجل العظيم حقا كلما حلق في آفاق الكمال اتسع صدره ، وامتد حلمه ، وعذر الناس من أنفسهم ، والتمس المبررات لأغلاطهم فإذا عدا عليه غر يريد تجريحه ، نظر إليه من قمته كما ينظر الفيلسوف إلي صبيان يعبثون في الطريق وقد يرمونه بالأحجار"[٣].

وقبل الحديث عن دعوة القرآن والسنة لهذا الخلق الحميد ، يجدر بنا التعريف بهذه الخصلة الشريفة ، فالحلم لغة: مصدر حلم فلان أي صار حليما ، وهو مأخوذ من مادة "ح-ل-م" التي تدل علي ترك العجلة[٤] فالحلم خلاف الطيش ، يقال : حلمت عنه أحلم ، فأنا حليم"[٥] قال ابن منظور: الحلم بالكسر : الأناة والعقل ، وجمعه أحلام وحلوم وفي التنزيل العزيز " **أم تأمرهم أحلامهم بهذا**"[٦]. وهو

---

[١] مقدمة كتاب "الحلم" للحافظ ابن أبي الدنيا ، صـ ٦ ، تحقيق وتعليق مجدي السيد إبراهيم ، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع.

[٢] يقال : يخلق سجيح أي لين سهل ، راجع لسان العرب ، لابن منظور ، ١٩٣٩/٣ ، مادة سجح باب السين .

[٣] خلق المسلم لمحمد الغزالي ، صـ ١٠٨ ، الطبعة الأولي ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م ، دار الريان للتراث القاهرة.

[٤] لهذه المادة في اللغة معنيان آخران هما : تثقب الشيء ورؤية الشيء فى المنام راجع هذين المعنيين ، وأمثلتهما في معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، ٩٣/٢ ، باب الحاء واللام وما يثلثهما ، كتاب الحاء .

[٥] معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، ٩٣/٢ ، بتصرف.

[٦] سورة الطور ، من الآية: ٣٢.

أيضا نقيض السفة ، والحليم في صفة الله-ﷻ-معناه الصبور ، وقيل : هو الذي لا يستخفه عصيان العصاة ، ولا يستفزه الغضب عليهم ، ولكنه جعل لكل شيء مقدارا فهو منته إليه"[١].

أما اصطلاحا: فللعلماء في تعريفه أقوال منها:هو الطمأنينة عند ثورة الغضب"[٢] وقيل "تأخير مكافأة الظالم"[٣] وقيل "هو احتمال الأعلي الأذي من الأدني ، وهو رفع المؤاخذة عن مستحقيها بجناية في حق مستعظم"[٤] وقيل : "ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب"[٥].

ومن خلال هذه المعان اللغوية والاصطلاحية لمادة "حلم" تبين أن هذه المادة تدور حول معان اللين ، الرفق ، العفو ، الصفح ، التأني ، كظم الغيظ ، ضبط النفس ، مقاومة هيجان الغضب وما إلي ذلك.

الفرق بين الحلم وكظم الغيظ : قال الإمام الغزالي-رحمه الله-:"اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلي كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلي مجاهدة شديدة ، ولكنه إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعي وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلف"[٦]

قال أبو حاتم :"الحلم منه ما هو سجية ومنه ما هو تجربة وتكلف ، ومنه ما هو مركب منهما معا ، وأول الحلم المعرفة ثم التثبت ثم العزم ثم التصبر ثم الصبر ثم الرضا ثم الصمت والإغضاء ، وما الفضل إلا للمحسن إلي المسئ ، وأما من أحسن إلي المحسن وحلم عمن لم يؤذه فليس ذلك بحلم ، ولا إحسان. والناس علي ضروب ثلاثة ، رجل أعز منك ، ورجل أنت أعز منه ، ورجل سواك في العز ، فالتجاهل علي من أنت أعز منه لؤم ، وعلي من هو أعز منك جنف ، وعلي من هو مثلك هراش كهراش الكلبين ، ونقار كنقار الديكين ، ولا يفترقان إلا عن الخدش والعقر والهجر ، ولا يكاد يوجد التجاهل وترك التحالم إلا من سفيهين ولقد أحسن الذي يقول:

ما تم حلم ولا علم بلا أدب ولا تجاهل في قوم حليمان

وما التجاهل إلا ثوب ذي دنس وليس يلبسه إلا سفيهان

---

[١] لسان العرب لابن منظور ، ٢/٩٨٠ – باب الحاء.

[٢] التعريفات للجرجاني ، صـ ١٢٥ ، باب الحاء.

[٣] التعريفات للجرجاني ، ص ١٢٥.

[٤] التوقيف علي مهمات التعاريف ، لمحمد عبد الرؤوف المناوي ، صـ ٢٩٤.

[٥] المفردات في غريب القرآن ، للراغب ، صـ ١٢٩ ، كتاب الحاء.

[٦] إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ٣/١٧٦.

فالواجب علي العاقل إذا غضب واحتد أن يذكر كثرة حلم الله عنه مع تواتر انتهاكه محارمه ، وتعديه حرماته ثم يحلم ولا يخرجه غيظه إلي الدخول في أسباب المعاص ، والحلم علي ضربين: أحدهما : ما يرد علي النفس من قضاء الله من المصائب التي امتحن الله بها عباده فيصبر العاقل تحت ورودها ويحلم عن الخروج إلي ما لا يليق بأهل العقل. والآخر: ما يرد علي النفس بضد ما تشتهيه من المخلوقين فمن تعود الحلم فليس بمحتاج إلي التصبر لاستواء العدم والوجود عنده"[1].

ولقد ذكر الإمام الماوردي في كتابه "أدب الدنيا والدين" أسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس ، حيث قال : الحلم من أشرف الأخلاق ، وأحقها بذوي الألباب ، لما فيه من سلامة العرض ، وراحة النفس ، واجتلاب الحمد ، وحد الحلم : ضبط النفس عند هيجان الغضب ، وهذا يكون عن باعث وسبب ، وأسباب الحلم الباعثة علي ضبط النفس عشرة أحدها: الرحمة للجهال ، وذلك من خير يوافق رقة ، وقد قيل في منثور الحكم : من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال ، الثاني: القدرة علي الانتصار ، وذلك من سعة الصدر ، وحسن الثقة ، وقد قال بعض الحكماء : ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة ، وقال بعض البلغاء : أحسن المكارم عفو المقتدر، وجود المفتقر ، الثالث: من أسبابه الترفع عن السباب ، وذلك من شرف النفس ، وعلو الهمة ، كما قال الحكماء : شرف النفس أن تحمل المكاره ، كما تحمل المكارم ، الرابع: الاستهانة بالمسيء ، وذلك عن ضرب من الكبر والإعجاب ، كما حكي عن الأحنف أن رجلا أكثر من سبه وهو لا يجيبه ، فقال: والله ، ما منعه من جوابي إلا هواني عليه ، الخامس: الاستحياء من جزاء الجواب ، وهذا يكون من صيانة النفس ، وكمال المروءة ، لذا قيل: احتمال السفيه خير من التحلي بصورته ، والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته ، وقيل أيضا : ما أفحش حليم ، ولا أوحش كريم ، السادس: التفضل علي السباب ، فهذا يكون من الكرم ، وحب التآلف ، وقد حكي عن الأحنف بن قيس[2] أنه قال: ما عاداني أحد قط ، إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال : إن كان أعلي متي عرفت له قدره ، وإن كان دوني ترفعت عنه ، وإن كان نظيري تفضلت عليه ، السابع: استكفاف الساب ، وقطع السباب ، وهذا يكون من الحزم ، وقد قال الشعبي[3]: ما أدركت أمي فأبرها ، ولكن لا أسب أحدا فيسبها ، ولذلك قيل : في إعراضك صون أعراضك ، الثامن: الخوف من العقوبة علي الجواب ، وهذا يكون من ضعف النفس ، وربما أوجبه الرأي ، واقتضاه الحزم ، وقد قيل : الحلم حجاب الآفات ، التاسع: من أسبابه الرعاية ليد سالفة وحرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء ، وحسن العهد ؛ ولذلك قيل:

---

[1] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لـ أبى حاتم البستى ، صـ ٢٠٩: ٢١٤ بتصرف.

[2] الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان ،يضرب به المثل في الحلم ،ولد في البصرة وأدرك النبي ولم يره ،شهد الفتوح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل ،توفي سنة ٧٢ه -٦٩١م (أنظر الأعلام ٢٧٦/١ ،التاسعة ١٩٩٠)

[3] عامر بن شرحبيل الهمذانى ، أبو عمر ، علامة عصره ، رأى على -كرم الله وجهه- وصلى خلفه ، توفى سنة أربع ومائة وقيل غير ذلك (سير أعلام النبلاء ٢٩٤/٤ وما بعدها).

أكرم الشيم أدعاها للذمم ، العاشر: المكر ، وتوقع الفرص الخفية ، وهذا يكون من الدهاء ، وقد قيل : من ظهر غضبه قل كيده ، وقال بعض الأدباء : غضب الجاهل في قوله ، وغضب العاقل في قوله ، وغضب العاقل في فعله وقيل : إذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته جوابا ، وأوجعته عقابا.

فهذه عشرة أسباب تدعو إلي الحلم ، وبعض الأسباب أفضل من بعض ، وليس إذا كان بعض أسبابه مفضولا به ، ما يقتضي أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة ، وإنما الأولي بالإنسان أن يدعوه للحلم أفضل أسبابه ، وإن كان الحلم كله فضلا ، وإن عرا عن أحد هذه الأسباب كان ذلا ولم يكن حلما[1].فالحلم صفة حميدة ، وخصلة جليلة اتصف بها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام. فلقد وصف المولي-ﷻ-خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالحلم في معرض استغفاره لأبيه ثم إعراضه عن الاستغفار عند ما تبين له أنه عدو لله ﷻ. قال تعالي:"وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم"[2] "أي وما استغفر إبراهيم لأبيه-بقوله:"واغفر لأبي إنه كان من الضالين"[3] أي وفقه للإيمان واهده إلي سبيله-إلا عن موعدة وعدها إياه بقوله:"سأستغفر لك ربي"[4] أي لا أملك لك هداية ولا نجاة ، وإنما أملك أن ادعوا الله لك. وقد وفي إبراهيم بما وعد ، ولم يكن إلا وفيا كما شهد الله له بقوله:"وإبراهيم الذي وفى"[5] "فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه" أي لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتي مات فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وقيل : تبين له ذلك بوحي من الله فتبرأ منه ومن قرابته وترك الاستغفار له ، إذ هذا مقتضي الإيمان كما قال تعالي :"لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم"[6]. ثم بين السبب الذي حمل إبراهيم علي الوعد بالاستغفار لأبيه مع شكاسته له وسوء خلقه كما يؤذن بذلك قوله:" لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا"[7]"إن إبراهيم لأواه حليم" أي إن إبراهيم لكثير المبالغة في خشية الله والخضوع له ، صبور علي الأذي والصفح عن زلات غيره عليه"[8] فقوله ﷻ مثنيا علي خليله "إن إبراهيم لأواه حليم" تعليل لاستغفاره لأبيه قبل علمه وتبينه بإصراره علي الكفر قال صاحب الكشاف:"إنه لفرط ترحمه ورقته ، وحلمه ، كان يتعطف علي أبيه الكافر ، ويستغفر له مع شكاسته عليه ، وقوله "لأرجمنك"[9].

---

[1] أدب الدنيا والدين لأبي الحسين علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي صـ ٢٤٥: ٢٤٨ بتصرف ، حققه وعلق عليه المرحوم مصطفي السقا ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.

[2] سورة التوبة ، الآية: ١١٤.

[3] سورة الشعراء ، الآية: ٨٦.

[4] سورة مريم ، من الآية: ٤٧.

[5] سورة النجم ، الآية: ٣٧.

[6] سورة المجادلة ، من الآية: ٢٢.

[7] سورة مريم ، من الآية: ٤٦.

[8] تفسير المراغي ، ١١/٣٧-٣٨.

[9] تفسير الكشاف ، ٢/٣٠٢.

بينما ذهب "صاحب المنار" إلي أن هذه الجملة تعليل لامتناعه عن الاستغفار لأبيه ، فقال :"هذه الجملة المؤكدة بوصف إبراهيم-ﷺ-بالمبالغة في خشية الله والخشوع له ، وبالحلم والثبات في أموره كلها ، تعليل لامتناعه عن الاستغفار لأبيه بعد العلم برسوخه في الشرك وعداوة الله عز وجل"[١] وقول صاحب الكشاف هو الأقرب للصواب ، والمناسب لسياق الآية. ولقد " اختلف أهل التأويل في الأواه ، فقال بعضهم : هو الدعاء ، وقال آخرون: بل هو الرحيم ، وقال آخرون:بل هو الموقن ، وقال آخرون هي كلمة بالحبشية معناها:المؤمن ، وقيل: هو الذي يكثر تلاوة القرآن ، وقيل:هو من التأوه ، وقيل: الفقيه ، وقيل: المتضرع الخاشع"[٢].

قال ابن جرير : وأولي الأقوال في ذلك عندي بالصواب القول الذي قال أنه الدعاء ، ووجه الصواب عنده : أن الله ذكر ذلك ، ووصف به إبراهيم خليله-صلوات الله عليه-بعد وصفه إياه بالدعاء والاستغفار لأبيه ، فقال:"وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه" وترك الدعاء والاستغفار له ، ثم قال:إن إبراهيم لدعاء ربه شاك له حليم عمن سبه وناله بالمكروه ، وذلك أنه صلوات الله عليه ، وعد أباه بالاستغفار له ، ودعا الله له بالمغفرة عند وعيد أبيه إياه ، وتهدده له بالشتم بعد ما رد عليه نصيحته في الله ، وقوله: "أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا" فقال له صلوات الله عليه " سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا {} وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا" فوفي لأبيه بالاستغفار له حتي تبين له أنه عدو لله ، فوصفه الله بأنه دعاء لربه حليم عمن سفه عليه"[٣] أما الحليم فمعناه كما قال الشيخ رشيد رضا:"هو الذي لا يستفزه الغضب ولا يعبث به الطيش ، ولا يستخفه الجهل أو هوي النفس ، ومن لوازمه الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور واتقاء العجلة في كل من الرغب والرهب"[٤]. وقال الإمام السعدي :"حليم" أي ذو رحمة بالخلق ، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات لا يستفزه جهل الجاهلين ، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه ، فأبوه قال له "لأرجمنك" وهو يقول له "سلام عليك سأستغفر لك ربي"[٥]. وقال الإمام ابن عطية: "حليم" معناه صابر محتمل عظيم العقل ، والحلم العقل"[٦] وزاد الإمام الواحدي : هو الذي لم يعاقب أحدا إلا في الله ، ولم ينتصر من أحد إلا لله"[٧] "روي أنه عليه السلام كان من حلمه أنه إذ آذاه الرجل من قومه قال له : هداك الله تعالي"[٨] فقد كان خليل الله إبراهيم-

---

[١] تفسير المنار ، ٦٠/١١.

[٢] جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لابن جرير الطبري ، ٤٧/١١ : ٥١ ، دار الفكر.

[٣] جامع البيان ، ٥١/١١: ٥٢ بتصرف.

[٤] تفسير المنار ، ٦١/١١ ، وينظر تفسير المراغي ، ٣٥/١١.

[٥] تيسير الكريم الرحمن ، صـ ٣٥٣.

[٦] المحرر الوجيز ، ٩٢/٣.

[٧] تفسير الواحدي ، ٤٨٤/١.

[٨] روح المعاني ، ٣٥/١١ بتصرف.

عليه السلام-حليما رقيقا لا يعاجل أحدا بالعقوبة إذا أذاه ، ألم يقل الحق-عز وجل-في موضع آخر من كتابه العزيز: "إن إبراهيم لحليم أواه منيب[1]" فهذا الثناء من المولي لخليله إبراهيم قد ورد في معرض الحديث عن مجادلة سيدنا إبراهيم في شأن إهلاك قوم لوط ، ولقد ذكر القرآن الكريم هذه المجادلة في سورة العنكبوت قال تعالي:"ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين {} قال إن فيها لوطا"[2] فسأل خليل الله كيف يهلكون أهل هذه القرية وفيهم من يذكر اسم الله فيها وعلي رأسهم نبي الله سيدنا لوط عليه السلام ؟ فأجابت الملائكة:"نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين"[3] فهذه الآيات قد وضحت سبب جدال سيدنا إبراهيم وهو علمه بوجود مؤمنين مع الكافرين في قرية واحدة ، وأيضا السبب هو ما ورد في الآية التي نحن بصددها وهو حلمه ﷺ وتأوهه وإنابته برجوعه إلي الله في جميع أموره.

قال الإمام الرازي:" قوله تعالي:"إن إبراهيم لحليم أواه منيب" مدح عظيم من الله تعالي لإبراهيم ، أما الحليم فهو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره ، بل يتأني فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله فإنه يحب من غيره هذه الطريقة ، وهذا كالدلالة علي أن جداله كان في أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب ثم ضم إلي ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله "أواه منيب" لأن من يستعمل الحلم في غيره فإنه يتأوه إذا شاهد وصول الشدائد إلي الغير ، فلما رأي مجيئ الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالي بهذه الصفة ، ووصفه أيضا بأنه منيب لأن من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة علي الغير فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلي الله في إزالة ذلك العذاب عنهم ، أو يقال : إن كان لا يرضي بوقوع غيره في الشدائد فألا يرضي بوقوع نفسه فيها كان أولي ولا طريق إلي صون النفس عن الوقوع في عذاب الله إلا بالتوبة والإنابة فوجب فيمن هذا شأنه أن يكون منيبا"[4].

هذا ! ولم يصف الله-عز وجل-أحدا بصفة الحلم إلا سيدنا إبراهيم في هاتين الآيتين ، وسيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام في قوله:"فبشرناه بغلام حليم"[5]. وإنما وصف بهذا الوصف عندما عرض عليه أبوه الذبح فقال:" يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين" قال الإمام أبو السعود-رحمه الله-: قوله : فبشرناه بغلام حليم صريح في أن المبشر به عين ما استوهبه عليه السلام ولقد جمع فيه بشارات ثلاث ، أنه غلام وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حليما ، وأي حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال:"يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين"[6] فقلما يوجد في الصبيان

---

[1] سورة هود ، الآية: ٧٥.

[2] سورة العنكبوت ، الآية: ٣١- وجزء من الآية:٣٢.

[3] سورة العنكبوت ، من الآية ٣٢.

[4] مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد التاسع ، ٢٥/١٨.

[5] سورة الصافات ، الآية: ١٠١.

[6] إرشاد العقل السليم ، ١٩٩/٧.

سعة صدر وحسن صبر وإغضاء في كل أمر ... عرض عليه أبوه وهو مراهق الذبح فقال:" ستجدني إن شاء الله من الصابرين" فما ظنك به بعد بلوغه ، وقيل : ما نعت الله نبيا بالحلم لعزة وجوده غير إبراهيم وابنه عليهما السلام"[١] ووصف سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل-عليها السلام-بصفة الحلم دون غيرهما من الأنبياء لا يعني عدمها في غيرهم ، فجميع الأنبياء قد عرفوا بالحلم ، فرسل الله من لدن آدم-عليه السلام-إلي خاتم الأنبياء والمرسلين محمد-ﷺ-يحملون نفوسا سمحة وقلوبا رحيمة ، ليضربوا لقومهم المثل العليا في الحلم ، والعفو والسماحة ، والرحمة ، ملقين بإهانات أعدائهم إياهم وراء ظهورهم فلم يوجهوا إليها كبير اهتمام. ولقد ساق القرآن الكريم قصص وسير هؤلاء الأنبياء مبنيا ما كانوا عليه من عفو كريم وصفح جميل ، من هؤلاء الرسل...

سيدنا هود عليه السلام : لقد أرسل الله تعالي هودا إلي قومه ومتعه بدرجة عالية من العفو والحلم ، فحينما دعاهم إلي التوحيد وجهوا إليه كل سخيف من القول وكل منكر من الكلام "إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين"[٢]. فماذا قال لهم أمام هذه الشتائم الفاضحة وهذا السفه الوضيع؟ إنه لم يتعد الحلم مبينا لهم نفي هذه الصفات القبيحة عنه شارحا لهم أصل مهمته بالنسبة إليهم"يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين {} أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين"[٣]... وهكذا نجد "أن شتائم الجهال لم يطش لها حلم سيدنا هود-عليه السلام-وذلك لأن الشقة بعيدة بين رجل اصطفاه الله فهو في الذروة من الخير والبر ، وبين قوم سفهوا أنفسهم وتهاووا علي عبادة أحجار يحسبونها لفرط غباوتهم تضر وتنفع"[٤].

سيدنا يوسف عليه السلام : ويأتي دور يوسف-عليه السلام-وحظه من هذا الخلق السمح إذا عرفنا ما صنع به أخوته من حقدهم عليه وطرحهم إياه في البئر وإحزانهم أباهم عليه حتي فقد بصره وحصل له ما حصل ، ثم ما لقي يوسف-عليه السلام-بسببهم من كيد النساء وإلقائه في السجن ، ثم يخرج من تلك المحن منتصرا ؛ فيمكنه الله من خزائن الأرض ، ويعلي من قدره ، ويرفع له ذكره ، فتتقابل الوجوه بالوجوه فيتهمونه بالسرقة في قولهم "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" وهم يقصدون يوسف فيسرها في نفسه ولم يبدها لهم صفحا وحلما ، ثم يعودون إليه مرة أخري ، فماذا صنع يوسف معهم وقد أكمل الله له أمره وجمع له أهله؟ يقول لهم في حلم وصفح:"لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين"[٥] "لأنه حينئذ صفح وعفا عن جريمتهم وجريرتهم بما فعلوا من التوبة"[٦].

---

[١] روح المعاني ، ١٢٧/٢٣ بتصرف.

[٢] سورة الأعراف ، الآية: ٦٦.

[٣] سورة الأعراف ، الآيتان: ٦٧-٦٨.

[٤] خلق المسلم ، صـ ١٠٨-١٠٩ بتصرف.

[٥] سورة يوسف ، الآية: ٩٢.

[٦] إرشاد العقل السليم ، لـ أبي السعود ، ٤/ ٣٠٥.

سيدنا عيسي عليه السلام : وكذلك تمثل جانب الحلم والعفو والصفح في سيدنا عيسي-عليه السلام-حينما قال في مناجاة ربه بشأن قومه وموقفهم منه:"إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم"[1] ولم يسأل ربه إهلاكهم رغم افترائهم عليه الكذب والبهتان.

هذه بعض من النماذج لرسل الله-عليهم الصلاة والسلام-ذكرناها علي سبيل المثال لنبين ما كان عليه رسل الله من الحلم والعفو والصفح ، فالحلم فضيلة من الفضائل الحميدة ، فهو خير ما تحلي به العباد الزهاد ، وأفضل ما تمسك به الأتقياء العلماء.

وخير ما تمثل بهذا الخلق الرفيع سيد ولد آدم سيدنا محمد-ﷺ-فلقد من الله سبحانه علي العالم بهذا "النبي الكريم الحليم لكي يمسح آلامه ويخفف أحزانه ، ويعالج خطاياه ويسعي في هدايته ، ويناصر الضعيف ، ويقاتل دونه قتال الأم عن صغارها ، ويدحض شوكة القوي حتي يرده إنسانا سليم الفطرة ... فأرسل محمدا-ﷺ-وسكب في قلبه من العلم والحلم ، وفي خلقه من الإيناس والبر ، وفي طبعه من السهولة والرفق ، وفي يده من السخاوة والندي ما جعله أزكي عباد الله رحمة وأوسعهم عاطفة ، وأرحبهم صدرا ؛ ولذلك قال الله فيه:"فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك[2]"[3].

"فلرسول الله-ﷺ-من الحلم-كما له من كل خلق-كماله ، يغضب للحق إذا انتهكت حرماته وإذا غضب فلا يقوم لغضبه شيء حتي يهدم الباطل وينتهي ، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل لا يعرف أدب الخطاب أو مسيء إلي رسول الله-ﷺ-نفسه يمكن إصلاحه ، أو منافق يتظاهر بغير ما يبطن ، وتجد حلمه دائما عجيبا يفوق الحد الذي يتصوره الإنسان ، خاصة وأن حلمه مع القدرة علي البطش والقتل والإرهاب ، إذا لا يشك أحد أن رسول الله-ﷺ-لو أمر بقتل إنسان لتبادر المئات إلي تنفيذ أمره ، بل إن بعضهم لا يحتاجون إلي الأمر بقدر ما يحتاجون إلي الإذن ، فلو أذن رسول الله-ﷺ-لطارت رؤوس عن كواهل أصحابها قبل أن ينهوا كلامهم ، ولكن الرسول الحليم-ﷺ-كان يتحمل ويحلم حتي إنك لتراه الحلم مجسما"[4]... قال تعالي:"خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"[5] فهذه الآية تحث الرسول-عليه السلام-علي العفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين ، يذكر الإمام أبو السعود في هذا الشأن ما نصه:" بعدما عد من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق تحمله ، أمره-عليه السلام-بجمع مكارم الأخلاق التي من جملتها الإغضاء عنهم ... وأخذ العفو عن المذنبين وأن يأمر بالمعروف والجميل

---

[1] سورة المائدة ، الآية: ١١٨.

[2] سورة آل عمران ، من الآية: ١٥٩.

[3] خلق المسلم ، ٢١٠ ، بتصرف.

[4] دراسات منهجية هادفة حول الأصول الثلاثة الله الرسول ، الإسلام لسعيد حوي ١٢٧/١ ، مكتبة وهبة.

[5] سورة الأعراف ، الآية: ١٩٩.

المستحسن من الأفعال فإنها قريبة من قبول الناس من غير نكير ، وأن يعرض عن الجاهلين من غير مماراة ، ولا يكافئهم بمثل أفعالهم"[١].

لذلك كان صلوات الله عليه وسلامه لا يعاجل أحدا بعقوبة بل كان حليما عفوا يحلم ويعفو عمن آذاه ؛ فلقد روي عن أبي هريرة ﷺ "أن رجلا أتي النبي-ﷺ-يتقاضاه فأغلظ[٢] فهم به [٣] أصحابه ، فقال رسول الله ﷺ :"دعوه فإن لصاحب الحق مقالا ، ثم قال "أعطوه سنا مثل سنه" قالوا يا رسول الله : لا نجد إلا أمثل من سنه ، فقال:"أعطوه فإن من خيركم أحسنكم قضاءا"[٤].

فانظر وتأمل رسول الله-ﷺ-وهو أشرف خلق الله أجمعين وخير ولد آدم أجمعين يحلم ويصفح عمن أغلظ عليه في الطلب قائلا:"أعطوه فإن لصاحب الحق مقالا" يالعظمته وحلمه ﷺ ، قال ابن حجر رحمه الله:"في هذا الحديث حسن خلق النبي -ﷺ- وعظم حلمه وتواضعه وإنصافه ، ويؤخذ منه أن من عليه دين لا ينبغي له مجافاة صاحب الحق ، وأن من أساء الأدب علي الإمام كان عليه التعزيز بما يقتضيه الحال إلا أن يعفو صاحب الحق"[٥].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال:" كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتي نظرت إلي صفحة عاتق النبي-ﷺ-قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء"[٦]... قال بن حجر :"وفي هذا الحديث : بيان حلمه-ﷺ-وصبره علي الأذى في النفس والمال والتجاوز علي جفاء من يريد

---

[١] إرشاد العقل السليم ، لـ أبي السعود ، ٣/ ٣٠٨ بتصرف.

[٢] يحتمل أن يكون الإغلاظ بالتشديد في المطالبة ، ويحتمل أن يكون لغير ذلك ويكون صاحب الدين كافرا ، فقد قيل إنه كان يهوديا والأول أظهر(فتح الباري ، ٥/٦٩).

[٣] أي أراد أصحاب النبي- ﷺ- أن يؤذوه بالقول أو الفعل لكن لم يفعلوا أدبا مع النبي ﷺ (فتح الباري ، ٥/٦٩).

[٤] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة ، باب الوكالة في الديون ٢/٦٨٥ ، كما أخرجه في كتاب الإستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس ، باب استقراض الإبل ٢/٧١٢ ، وأخرجه أيضا في نفس الكتاب ، باب هل يعطي أكبر من سنه ، وباب حسن التقاضي ٢/٧١٣ ، كما ذكره في كتاب الهبة وفضلها باب الهبة المقبوضة وغير المقبوضة والمقسومة وغير المقسومة وقد وهب النبي -ﷺ - وأصحابه لهوازن ما غنموا منهم وهو غير مقسوم ٢/٧٨٦ ، كما أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب المساقاة باب من استسلف شيئا فقضي خيرا منه وخيركم أحسنكم قضاء ، ٣/١٢٢٥.

[٥] فتح الباري ، ٥/٧٠ ، بتصرف.

[٦] أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فرض الخمس ، باب ما كان النبي -ﷺ- يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ، ٢/٩٧٠ ، كما أخرجه في صحيحه، كتاب اللباس باب البرود والحيرة والشملة وقال خباب : شكونا إلي النبي ﷺ وهو متوسد بردة له ، ٤/١٨٥٥ ، كما أخرجه فى صحيحه أيضا ، كتاب الأدب ، باب التبسم والضحك وقالت فاطمة عليها السلام ، أسر إلي النبي -ﷺ- فضحكت ، وقال بن عباس : إن الله هو أضحك وابكي ٤/١٩٢١-١٩٢٢ ، كما أخرجه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة ، ٢/٧٣٠-٧٣١.

تألفه علي الإسلام ، وليتأسي به الولاة بعده في خلقه الجميل من الصفح ، والإغضاء والدفع بالتي هي أحسن"[١].

وعن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-قال: قسم رسول الله-ﷺ-قسمة فقال رجل من الأنصار:والله ما أراد محمد بهذا وجه الله ، فأتيت رسول الله-ﷺ-فأخبرته فتمعر[٢] وجهه وقال:"رحم الله موسي لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر"[٣]. قال ابن حجر:"في هذا الحديث دليل علي أن أهل الفضل قد يغضبهم ما يقال فيهم مما ليس فيهم ومع ذلك يتلقون ذلك بالصبر والحلم ، كما صنع النبي-ﷺ-اقتداء بموسي-عليه السلام-"[٤].

وعن أنس بن مالك-رضي الله عنه-أن يهودية أتت النبي-ﷺ-بشاة مسمومة فأكل منها فجيئ بها فقيل : ألا تقتلها؟ قال:"لا" فما زالت أعرفها في لهوات[٥]رسول الله ﷺ[٦]. فتأمل حلم النبي-ﷺ-يعفو ويصفح عمن يهم بقتله.

وعن عائشة قالت:"دخل رهط من اليهود علي رسول الله-ﷺ-فقالوا:السام عليكم ، قالت عائشة: ففهمتها فقلت : وعليكم السام واللعنة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ :"مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله" فقلت:يا رسول الله! أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ:"قد قلت وعليكم"[٧] قال ابن حجر:"الرفق : بكسر الراء وسكون الفاء بعدها قاف هو لين الجانب بالقول والفعل ، والأخذ بالأسهل ، وهو ضد العنف"[٨] ومعني قوله ﷺ " في الأمر كله" أي:" في أمر الدين والدنيا حتي في معاملة المرء نفسه ويتأكد ذلك في معاشرة من لابد للإنسان من معاشرته كزوجته ، وخادمه وولده فالرفق محبوب مطلوب مرغوب ، وكل ما في الرفق من الخير ففي العنف مثله من الشر"[٩].

فتأمل رد النبي علي أهل الكتاب ، فهو لم يرد برد يسوؤهم بل قال لهم فقط "وعليكم" ، قال الإمام النووي رحمه الله:"هذا من عظيم خلقه-ﷺ-وفيه حث علي الرفق والصبر والحلم وملاطفة الناس ما لم

---

(١) فتح الباري ، ٥٢٢/١٠ .

(٢) تغير من الغضب (فتح الباري ٤٩٠/١٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب ، باب من أخبر صاحبه بما يقال فيه ، ١٩١٣/٤، كما أخرجه مطولا في كتاب فرض الخمس ، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ٩٧١/٢.

(٤) فتح الباري ، ٥٢٩/١٠.

(٥) لهوات : بفتح اللام جمع لهاة وهي سقف الفم أو اللحمة المشرفة علي الحلق ، وقيل هي أقصى الحلق ، وقيل ما يبدو من الفم عند التبسم ، فتح الباري ٢٧٤/٥.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الهبة وفضلها باب قبول الهدية من المشركين ، ٧٨٩/٢.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب الرفق في الأمر كله ، ١٩٠٥/٤، كما أخرجه مسلم ، كتاب السلام ، باب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم رقم الحديث (٢١٦٥) ، ١٧٠٦/٤.

(٨) فتح الباري ، ٤٦٤/١٠.

(٩) فيض القدير ، ٢٨٧/٢.

تدع حاجة إلي المخاشنة"[1] وهذا ما يجب علينا في جميع تعاملاتنا حتي ولو كان حلمنا علي من هو علي غير ملة الإسلام ما لم تنتهك حرمات الله-ﷻ-ولهذا فلقد وصف الله-ﷻ-عباد الرحمن بصفات عدة وجعل منها حلمهم علي الجاهلين ، قال تعالي:"وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما"[2] أي:"إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيئ ، لم يقابلوهم بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيرا"[3] وقوله قالوا "سلاما" يعني" قالوا سدادا ، أو ردوا معروفا من القول ، وقال الحسن البصري:"قالوا سلام عليكم ، إن جهل عليهم حلموا"[4].

فالحلم صفة من الصفات الرشيدة ، وخصلة من الخصال الحميدة ، يجب التحلي به لاسيما في هذا العصر الذي نعيش فيه" ففي هذا العصر لهث الناس خلف الحياة المادية وتركوا التعاليم الربانية ، إلا من رحم ربي ، ولذا ظهر في هذا الشطر من الدهر الأمراض الخطيرة ، والعلل الوبيلة التي لم تظهر في أسلافنا ، التي كان أكثرها بسبب الغضب ، وعدم امتلاك زمام الأمور بقوة ، فكم من بيت خرب بسبب الغضب؟ وكم من أمرأة طلقت بسب غضب زوجها؟ وكم من رجل شل بسبب الغضب؟ وكم من أولاد شردوا بسبب الغضب"[5].

من هذا المنطلق كان المصطفي-ﷺ-يدعو إلي الحلم ، وينهي عن المعاجلة بالعقوبة والغضب ، فعن أبي هريرة-رضي الله عنه-أنه قال: قال رسول الله ﷺ :"ليس الشديد بالصرعة[6]إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"[7].

وهذا الحديث فيه فضل الحلم ، وفيه دليل علي أن الحلم كتمان الغيظ ، وأن العاقل من ملك نفسه عند الغضب ، لأن العقل في اللغة: ضبط الشيء وحبسه ، ومنه قيل :عقال الناقة ومعناه في الشريعة:ملك النفس وصرفها عن شهواتها المردية لها ، وحبسها عما حرم الله ، وقد جعل رسول الله-ﷺ-للذي يملك نفسه ويغلبها من القوة ما ليس للذي يغلب غيره ، وفي هذا دليل علي أن مجاهدة النفس أصعب مرارا وأفضل من مجاهدة العدو والله أعلم"[8]. وهذا الحديث من فصيح الكلام وبليغه ، "لأنه لما كان الغضبان

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٤٥/١٤.

[2] سورة الفرقان ، من الآية ٦٣.

[3] تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ، ٣٢٥/٣.

[4] تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير، ٣٢٦/٣.

[5] مقدمة كتاب "الحلم" لابن أبي الدنيا ، صـ ١٣ بتصرف.

[6] بضم الصاد المهملة وفتح الراء : الذي يصرع الناس كثيرا بقوته والهاء للمبالغة في الصفة ، والصرعة بسكون الراء بالعكس وهو من يصرعه غيره كثيرا . فتح الباري ، ٥٣٥/١٠.

[7] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب لقول الله "الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين" ١٩٢٨/٤، كما أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب باب "فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب ، ٢٠١٤/٤ ، رقم الحديث (٢٦٠٩).

[8] التمهيد لابن عبد البر ، ٣٢٢/٦-٣٢٣.

بحالة شديدة من الغيظ وقد ثارت عليه من الغضب فقهرها بحلمه ، وصرعها بثباته ، وعدم عمله بمقتضي الغضب كان كالصرعة الذي يصرع الرجال ولا يصرعونه"[١].

وروي أيضا عن أبي هريرة -ﷺ-أن رجلا قال للنبي-ﷺ-: أوصني ، قال:"لا تغضب" فردد مرارا ، قال: "لا تغضب"[٢]... فهى وصية بأن يملك الإنسان نفسه عند هيجان الغضب ، ولا يستعجل علي أحد بالعقوبة ، بل يتمهل ويتريث ، قال أحد العلماء:"خلق الله الغضب من النار وجعله غريزة في الإنسان ، فمهما قصد أو نوزع في غرض ما ، اشتعلت نار الغضب وثارت حتي يحمر الوجه والعينان من الدم ، لأن البشرة تحكي لون ما وراءها ، وهذا إذا ما غضب علي من دونه واستشعر القدرة عليه ، وإن كان ممن فوقه تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلي جوف القلب فيصفر اللون حزنا ، وإن كان علي النظير تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ، ويترتب علي الغضب تغير الظاهر والباطن ، كتغير اللون ، والرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال من غير ترتيب ... واستحالة الخلقة حتي لو رأي الغضبان نفسه في حال غضبه لكان غضبه حياء من قبح صورته ، واستحالة خلقته ، هذا كله في الظاهر ، وأما الباطن فقبحه أشد من الظاهر ، لأنه يولد الحقد في القلب والحسد وإضمار السوء علي اختلاف أنواعه ، بل أولي شيء يقبح منه باطنه ، وتغير ظاهره ثمرة تغير باطنه ، وهذا كله أثره في الجسد ، وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحيي منه العاقل ويندم قائله عند سكون الغضب ، ويظهر أثر الغضب أيضا في الفعل بالضرب أو القتل ، وإن فات ذلك بهرب المغضوب عليه رجع إلي نفسه فيمزق نفسه ، ويلطم خده ، وربما سقط صريعا ، وربما أغمي عليه ، وربما كسر الآنية ، وضرب من ليس له في ذلك جريمة ، ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله-ﷺ-"لا تغضب" من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفسدة مما يتعذر إحصاؤه ، والوقوف علي نهايته"[٣] ... قال الإمام النووى: لم يزده ﷺ في الوصية علي "لا تغضب" مع تكراره الطلب ، وهذا دليل ظاهر في عظم مفسدة الغضب ، وما ينشأ منه"[٤].

فالغضب جمرة من نار لابد من إخمادها قبل اشتعالها ؛ ولذلك أعد عز وجل جنة عرضها السماوات والأرض للمتقين الموصوفين بكظم الغيظ والعفو عن الناس ، قال عز من قال:"وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين {} الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين"[٥] فهذه الآية قد عددت صفات المتقين ومن تلك الصفات كظم الغيظ وهو ما عبر عنه بقوله تعالي "والكاظمين الغيظ" ، والكظم هو :"الإمساك علي ما في

---

[١] شرح الزرقاني ، علي موطأ الإمام مالك ، ٣٢٧/٤ بتصرف يسير.

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب ، ١٩٢٨/٤ .

[٣] فتح الباري ، ٥٣٧/١٠.

[٤] صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٦٣/١٦.

[٥] سورة آل عمران ، الآيتان: ١٣٣-١٣٤.

النفس علي صفح أو غيظ"[١] قال الإمام الألوسي:"أصل الكظم شد رأس القربة عند امتلائها ، ويقال فلان كظيم أي ممتلئ حزنا"[٢] وقال النحاس:"الكظم في اللغة أن يحبس الغيظ ويقال كظم البعير علي جرته إذا ردها في حلقه ، ويقال للمتلئ حزنا وغما كظيم ومكظوم"[٣] فالكظم إذن: بمعني الحبس ، وأما الغيظ فهو : هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر"[٤] قال الراغب:"الغيظ هو: الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه"[٥]. وقال ابن عطية:"الغيظ أصل الغضب وكثيرا ما يتلازمان ، ولذلك فسر بعض الناس الغيظ بالغضب ، وليس تحرير الأمر كذلك ، بل (الغيظ) فعل النفس لا يظهر علي الجوارح ، والغضب حال لها ، معه ظهور في الجوارح ، ولهذا جاز إسناد الغضب إلي الله تعالي إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم ولا يسند إليه تعالي غيظ"[٦] وزاد الألوسي في الفرق بينهما:"أن الغضب يتبعه إرادة الانتقام البتة ولا كذلك الغيظ"[٧]. والمعني : "أن هؤلاء إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعني كتموه فلم يعملوه"[٨].

قال الإمام السعدي رحمه الله:" أي إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول أو الفعل ، هؤلاء لا يعملون بمقتضي الطباع البشرية بل يكظمون ما في قلوبهم من الغيظ ويصبرون عن مقابلة المسئ إليهم"[٩] قال رسول الله ﷺ :"من كظم غيظا وهو يقدر علي أن ينفذه دعاه الله علي رؤوس الخلائق يوم القيامة حتي يخيره في أي الحور شاء"[١٠].

ولم يقتصروا علي كظمهم للغيظ بل أيضا يعفون عمن ظلمهم ، قال تعالي "والعافين عن الناس" ، قال الألوسي:" أي المتجاوزين عن عقوبة من استحقوا مؤاخذته إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين وقيل عن المملوكين إذا أساءوا والعموم أولي"[١١] وقال ابن عطية-رحمه الله-: "القول القائل علي أن المراد "بالناس"

---

[١] التوقيف علي مهمات التعاريف ،صـ ٦٠٤.

[٢] روح المعاني ، ٥٨/٤.

[٣] معاني القرآن للنحاس ، ٤٧٧/١-٤٧٨.

[٤] روح المعاني ، ٥٨/٤.

[٥] المفردات في غريب القرآن ، صـ ٣٦٨ كتاب الغين.

[٦] المحرر الوجير ، ٥٠٩/١.

[٧] روح المعاني ، ٥٨/٤.

[٨] تفسير القرآن العظيم ، لـ ابن كثير ، ٤٠٥/١.

[٩] تيسير الكريم الرحمن ، صـ ١٤٨.

[١٠] أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عند رسول الله ، ٦٥٦/٤ ، رقم الحديث ٢٤٩٣ ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، كما أخرجه في كتاب البر والصلة ، باب في كظم الغيظ ، ٣٧٢/٤ ، رقم الحديث ٢٠٢١ ، كما أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الأدب باب من كظم غيظا ، ٢٤٨/٤.

[١١] روح المعاني ، ٥٨/٤.

المماليك قول حسن علي وجه المثال ، إذ هم الخدمة فهم مذنبون كثيرا ، والقدرة عليهم متيسرة ، وإنفاذ العقوبة سهل ؛ فلذلك مثل هذا المفسر به"[1] والقول ما ذهب إليه الألوسي بالعموم ، لأن هذا ما تقتضيه الآية الكريمة وهو العفو عن كل من أساء دون تخصيص ، قال السعدي رحمه الله: ويدخل في العفو عن الناس العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل ، والعفو أبلغ من الكظم ، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيئ ، وهذا إنما يكون ممن تحلي بالأخلاق الجميلة وتخلي عن الأخلاق الرزيلة ، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله رحمة بهم ، وإحسانا إليهم ، وكراهة لحصول الشر عليهم ، وليعفو الله عنه ويكون أجره علي ربه الكريم لا علي العبد الفقير ، كما قال تعالي:"فمن عفا وأصلح فأجره على الله"[2]"[3]. وقال القرطبي:" العفو عن الناس أجل ضروب فعل الخير ؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفو حيث يتجه حقه ، وكل من استحق عقوبة فتركت له فقد عفي عنه"[4] وقال الدكتور وهبه الزحيلي:" تلك منزلة ضبط النفس التي تدل علي سعة العقل ورجاحة الفكر وقوة الإرادة ومتانة الشخصية ، وهو أرقي من كظم الغيظ ، إذ ربما كظم المرء غيظه علي الحقد والضغينة"[5] ... روي عن النبي-ﷺ-أنه قال:"من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ، وليعط من حرمه ، وليصل من قطعه"[6] فالعفو عمن أساء من مكارم الأخلاق ، فيجب التحلي به.

ونظير هذه الآية قوله تعالي:"وإذا ما غضبوا هم يغفرون"[7] أي" يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم ، قيل نزلت في عمر حين شتم بمكة ، وقيل في أبي بكر حين لامه الناس علي إنفاق ماله كله وحين شتم فحلم ، فعن علي-رضي الله عنه-قال اجتمع لأبي بكر مال مرة فتصدق به كله في سبيل الخير فلامه المسلمون وخطأه الكافرون ؛ فنزلت:"فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون" إلي قوله: "وإذا ما غضبوا هم يغفرون" ، وقال ابن عباس:" شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يرد عليه فنزلت ، وهذه من محاسن الأخلاق ، يشفقون علي ظالمهم ، ويصفحون لمن جهل عليهم ، ويطلبون بذلك ثواب الله تعالي وعفوه"[8] قال ابن كثير:" سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس

---

[1] المحرر الوجيز ، ٥١٠/١ بتصرف.

[2] سورة الشوري ،من الآية: ٤٠.

[3] تيسير الكريم الرحمن لـ السعدي ، صـ١٤٨.

[4] تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، المجلد الثاني ، ١٣٣/٤ ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

[5] التفسير المنير ، ٨٨/٣.

[6] أخرجه الحاكم في مستدركه ، كتاب التفسير، ٢٩٥/٢ ، عن أبي بن كعب ، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ط ، دار الفكر بيروت ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م.

[7] سورة الشوري ، من الآية: ٣٧.

[8] تفسير القرطبي ، المجلد الثامن ، ٢٤/١٦-٢٥ ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

وليس سجيتهم الانتقام من الناس"[١] فهم قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم فصار الحلم لهم سجية وحسن الخلق لهم طبيعة حتي إذا أغضبهم أحد بمقالة أو فعالة كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه بل غفروه ولم يقابلوا المسيئ إلا بالإحسان والعفو والصفح ، فترتب علي هذا العفو والصفح من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير ؛ كما قال تعالي:"ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم {} وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم[٢]"[٣].

وإنما خص الغضب بلفظ الغفران ؛ "لأن استيلاءه علي طبع الإنسان وغلبته عليه شديدة ، فلا يغفر عند ثورة الغضب إلا من شرح الله صدره وخصه بمزية الحلم"[٤] قال ابن عطية:" قوله تعالي "وإذا ما غضبوا هم يغفرون" حض علي كسر الغضب والتدرب في إطفائه إذ هو جمرة من جهنم وباب من أبوابها"[٥].

فالغضب خلق شديد علي النفس ومقاومته أشد ، ولذلك كان الحلم من الخصال التي يحبها الله عز وجل. فلقد روي أن رسول الله-ﷺ-قال للأشج عبد القيس :"إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحلم والأناة"[٦]. كما روي أيضا ، أن رجلا قال : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ، فقال:"لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل[٧]ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت علي ذلك"[٨] هكذا كان للحلم فوائد كثيرة ومنافع عديدة فهو اسم من أسمائه عز وجل ، وخصلة تحلي بها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام.

ولقد ورد العديد من الآثار والأقوال عن الحلم وأهميته ، منها: "قال لقمان لابنه:ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن ؛ لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا في الحرب إذا لقي الأقران ، ولا أخاك إلا عند حاجتك إليه"[٩] وقال عمر ﷺ : "تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم"[١٠] وقال علي

---

[١] تفسير القرآن العظيم ، لـ ابن كثير ، ١١٩/٤.

[٢] سورة فصلت ، الآيتان: ٣٤-٣٥.

[٣] تيسير الكريم الرحمن ، لـ السعدي ،صـ ٧٦٠.

[٤] فتح القدير للشوكاني ، ٥٤٠/٤.

[٥] المحرر الوجيز ، ٣٩/٥.

[٦] سبق تخريجه وشرحه ، في التأني.

[٧] بفتح الميم الرماد الحار ، والمعني : كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه بما يلحقهم من الألم بما يلحق أكل الرماد الحار من الألم ، ولا شيء علي المحسن ، بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه(صحيح مسلم بشرح النووي ١١٥/١٦).

[٨] أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة ، باب صلة الرحم وتحريم تقطيعها ، ١٩٨٢/٥.

[٩] حلية الأولياء لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهانى ، ٣٨٩/٧ ط ، دار الكتاب العربي بيروت ، ١٤٠٥ ، الطبعة الرابعة.

[١٠]إحياء علوم الدين ١٧٨/٣ ، ط دار المعرفة بيروت ، لبنان ، ١٤٠٢-١٩٨٢م.

ﷺ :"ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك وأن يعظم حلمك ، وأن تباهي النـــاس بعبادة ربك فإن أحسنت حمدت الله ، وإن أسأت استغفرت الله"[١] وقال عمر بن عبد العزيز[٢]:"خمـــس إذا أخطأ القاضي فيهن خطة كانت فيه وصمة: أن يكون فهما ، حليما ، عفيفا ، صليبا[٣] ، عالما سؤولا عن العلم"[٤] وقال أبو حاتم ﷺ: "الواجب علي العاقل توطين النفس علي لزوم العفو عن الناس كافة ، وتـــرك الخروج لمجازاة الإساءة ؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان ولا سبب لنماء الإساءة وتهيجها أشد من الاستعمال بمثلها"[٥] قال الإمام الشافعي في ديوانه:

يخاطبني السفيه بكـــل قـــبح فأكره أن أكون لـــه مجيبـــا
يزيد ســـفاهة فأزيـــد حلمـــا كعود زاده الإحراق طيبـــا[٦]

وقال أيضا:

اعرض عن الجاهل الســـفيه فكـــل مـــا قـــال فهـــو فيـــه
فما ضر بحر الفرات يومـــا أن خاض بعض الكلاب فيه[٧]

وقال أيضا:

إذا سبني نذل تزايـــدت رفعـــة ومـــا العيـــب إلا أن أكـــون مســـاببه
ولو لم تكن نفسي علي عزيـــزة لمكنتهـــا مـــن كـــل نـــذل تحاربـــه
ولو أنني أسعي لنفعي وجـــدتني كثيـــر التـــواني للـــذي أنـــا طالبـــه
ولكنني أسعي لأنفـــع صـــاحبي وعارعلي الشبعان إن جاع صاحبه[٨]

---

(١) حلية الأولياء ، ٣٨٨/١٠ ، وينظر الإحياء ، ١٧٨/٣.

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، خامس الخلفاء الراشدين ، وهو من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشـــام ، توفى سنة ١٠١هـــ ، ٧٢٠م(الأعلام ٥٠/٥، الثامنة).

(٣) بصاد مهملة وباء موحدة من الصلابة بوزن عظيم أي قويا شديدا يقف علي الحق ولا يميل مع الهوي ويستخلص حـــق المحق من المبطل ولا يجابيه ، فتح البارى ، ١٦٠/١٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأحكام ، باب متي يستوجب الرجل القضاء ، ٢٢٣٩/٥ .

(٥) روضة العقلاء ، صـــ ١٦٦.

(٦) ديوان الشافعي المسمي الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس ، صـــ ٢٠ ، إعداد وتعليق وتقديم ، محمد بـــن إبراهيم سليم ، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير.

(٧) ديوان الشافعي ، صـــ ١٥٦.

(٨) ديوان الشافعي ، صـــ ١٩.

"فعلي العبد أن يحلم علي أخطاء الناس ... وينظر إلي العصاة بعين الرحمة ... ويري أن كل معصية في الناس وكأنها فيه ... والحكمة تقول: لا راحة في الدنيا ... ولا شفاعة في الموت ولا حيلة في الرزق ولا سلامة من الناس"[1].

ويمكننا بعد ذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وبعض أقوال العلماء أن نستخلص فوائد الحلم وأهميته... وهى:

١- صفة من الصفات التي يحبها الله ورسوله ومن ثم من تحلي بها اكتسب محبة الله ورضوانه.

٢- دليل كمال العقل وضبط النفس ، وامتلاك زمام الأمور.

٣- تعمل علي انتشار التآلف والمحبة بين الناس.

٤- صاحبها في الدرجات العلا وله عند الله الجزاء الأوفى.

وغير ذلك من الفوائد التي قد يكتسبها الإنسان إذا تحلي بتلك الفضيلة.... ،

ولا ننسي قبل كل هذا أن الحلم صفة من صفات الله-ﷻ-فهو الحليم بعباده الرحيم بهم لا يعاجل العصاة بالعقوبة بل يمهلهم ، ولذلك جدير بنا الحديث عن حلم الله-ﷻ-وإمهاله لعباده ، وهو حديثنا في الفصل السادس من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

[1] الأسماء الحسني تجليات وأدعية بقلم عبد السلام محمد بدوي ، صـ ١٤٥ ، ط دار المعارف.

obeikandl.com